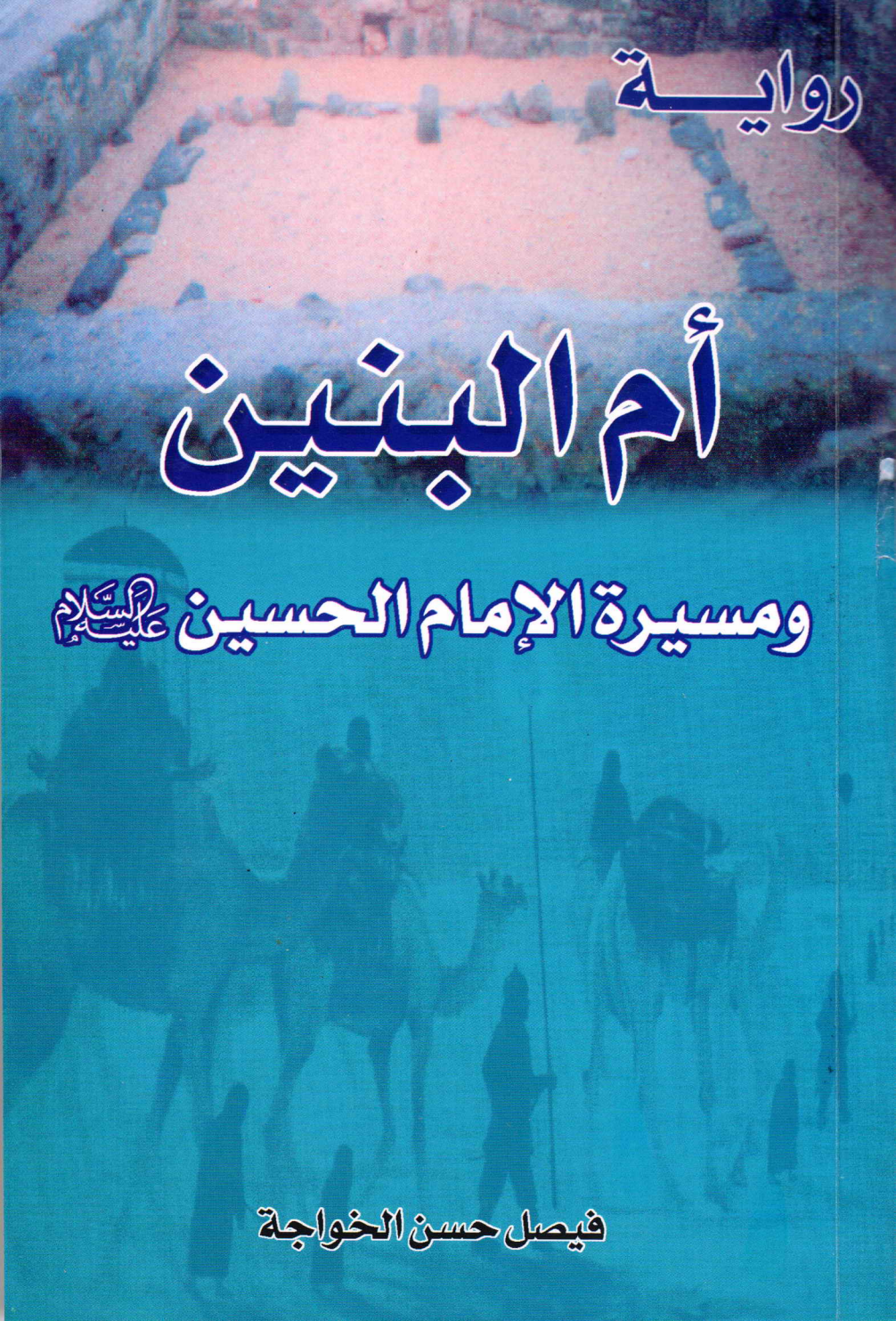

رواية

أم البنين

ومسيرة الإمام الحسين عليه السلام

فيصل حسن الخواجة

رواية

أم البنين

ومسيرة الإمام الحسين (عليه السلام)

فيصل حسن الخواجة

إهداء

إلى روح والدي حسن حسين الخواجة

الذي غادرنا في ٧ محرم قبل طباعة هذا الكتاب بيومين .

إلى الذي تعلمت منه حب آل محمد .

وكان يردد يرحمه الله هذين البيتين

لا عذب الله أمي إنها شربت

حب الوصي وغذتنيه باللبن

وكان لي والد يهوى أبا حسن

فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسن

مقـــدمـــة

عذراً سيدتي ومولاتي يا أم البنين عذراً مما قد ننقل ما هو دون فضلكم . ودون مقامكم فكل ما هو مكتوب وما وصلت إليه الكتب هو دون فضلكم ومقامكم ، لكنها محاولة يائسة من الاقتراب من ساحة نوركم نستجدي قبساً - أداءً لنذر صار تكليفاً علينا لما أخذنا الحاجة وإلا لتركنا الخوض فيما قد يوقعنا في المحذور ، والعذر عند كرام الناس مقبول وأني أقدم العذر مشفوعاً بطلب القبول بحق حبك للحسين (ع) .

- المكان: دار متواضعة في المدينة المنورة بالقرب من مسجد النبي (ص)

- الزمان: سنة ٦١ للهجرة النبوية الشريفة.

- عائلة أم عبد الله عائلة رمزية تمثّل الأسرة المسلمة الموالية لأهل البيت (ع) في تلك الفترة. أما الأحداث الإسلامية والشخصيات الإسلامية فهي حقيقية ولها مصادر معتمدة لدى المسلمين كافة.

لا تـــدعونّي ويك أم البـنين
تـــذكّروني بـليوث العـرين

كـانت بـنون لي أُدعى بـهم
واليوم أصبحت ولا مـن بـنين

أربـــعة مـثل نسـور الربـى
قد واصلوا الموت بقطع الوتين

تـنازع الخـرصان أشلاءهم
فكـلّهم أمسى صـريعاً طـعين

يـا ليت شـعري أكـما أخـبروا
بأن عـــباساً قـطيع اليـمين

الفصل الأول

خروج الإمام

بينما كانت الأم العجوز أم عبد الله ترتّل آياتٍ من القرآن الحكيم فى صحن الدار في خشوع وسكينة وإذا بالباب يُطرق بشدّة وتكرار مما جعل أم عبد الله تفزع وتهرول جهة الباب و تفتحه. ويدخل عبد الله وقد بدت عليه علامات الاضطراب ممزوجة بالغضب والحزن.

أم عبد الله ـ ما بكَ يا عبد الله؟

عبد الله ـ هل سمعتِ بالخبر؟

أم عبد الله ـ وأي خبر؟؟ أقلقتني! هات ما عندك بسرعة، فإني لا أحتمل هذا القلق.

عبد الله ـ لقد ترك الإمام الحسين(ع) المدينة المنورة!

وما إن سمعت أم عبد الله هذا الخبر حتى هوت ساقطة واضعة يدها على رأسها مدهوشة حزينة.

أم عبد الله ـ أحقاً ما تقول يا عبد الله؟

عبد الله ـ نعم يا أماه.

أم عبد الله ـ لم يبق لنا في المدينة من أهل هذا البيت الطاهر سوى سبط النبي هذا يؤنس وحشتنا بعد غياب النبي(ص) ووصيه وابنته وسبطه الحسن عليهم السلام.

عبد الله ـ وما يزيد في الألم يا أُماه أني سمعت أنباءً مفادها بأنه لن يرجع.

أم عبد الله [مقاطعة إياه] ـ لاتقل ذلك بل ادعُ الله ليل نهار أن يعيده لنا سالماً فنسعد ونسعد المدينة كلها برجعته. ولكن قل لي مَن خرج معه؟

عبد الله ـ لقد خرج معه جلّ أهله وعياله وخرجت معه أُخته العقيلة زينب (عليها السلام) وجمع كبير من أصحابه.

وسأله أخوه جابر، الذي كان جالساً إلى جانبه يستمع حزيناً:

ـ وإلى أين خرج ولماذا؟

عبد الله ـ سأخرج الآن وأحاول أن أستقصي الحقيقة بدقة.

وقبل أن يخرج تشبّثت أمه بملابسه وهي تحذّره بخوف وذعر شديد يعكس الحالة الأمنية المتردية في تلك الفترة من التاريخ.

أم عبد الله ـ انبته يا ولدي أشد الانتباه من أجلي وأجل أبنائك، فإن البغاة أذناب يزيد يملأون كل مكان فحذار أن يعرف أحد ما نحن عليه من موالاة هذه العترة الطاهرة فيكون مصيرنا الهلاك.

عبد الله ـ لا تخافي يا أُماه فأنا أكثر حرصاً مما تتصورين. فحتى أقرب الناس إليّ لا يعرفون ما أنا عليه من ولائي لأهل البيت والإمام الحسين إلا أخي مسعود، فهو وإن كان مخالفاً لنا في العقيدة إلا أنه يكتم سرّنا خوفاً علينا، فنحن أهله.

الفصل الثاني

تقصّي الأخبار

وخرج بعد أن ترك البيت وقد عج بالاضطراب والقلق على آل البيت(ع) تركهم وهم يعدّون اللحظات منتظرين عودته ليوافيهم بآخر الأخبار عن حركة الإمام وتفاصيل خروجه.

ورفعت أم عبد الله يدها بالدعاء تبتهل إلى الله أن يحفظ الإمام الحسين(ع) من كل سوء ويحميه من كيد الظالمين ومكرهم، ونلحّ بالدعاء من أعماق قلبها.

وراح عبد الله يجوب طرقات المدينة وأزّقتها يتحسس الأخبار بحيطة وحذر شديدين، فقام ببعض الزيارات لأصدقائه

في أماكن عملهم وجلس إلى كل منهم قليلاً محاولاً الحصول على المعلومات تارةً من الحديث العابر مع البعض وتارةً من الأسئلة المباشرة من معارفه المقرّبين والذين هم على نهج الرسول وأهل بيته.

وعندما رأى نهاره يستأذن ودنا الغروب، جعل وجهته مسجد الرسول(ص) فتوضأ واستأذن بأدبٍ عند الباب (أأدخل يا رسول الله؟).

ودخل مسجد النبي الكريم فأخذ جانباً من المسجد وعيناه شاخصتان باتجاه القبر الشريف، وتلا زيارة المصطفى ثم أخذ يناجيه ويخاطبه ويشتكي إليه الحال.

وسالت دموع عينيه وجال ببصره أرجاء المسجد الشريف، وشعر بوحشةٍ وكآبة وأسى يلفّ المسجد الطاهر من كل جانب. فهذا المكان لم ير البهجة منذ فارقه النبي(ص)، لما أصاب أهل البيت من البلاء تلو البلاء، والشقاء تلوا الشقاء كالنهر الجاري لا يريد أن ينقطع أو يتوقف عنهم، أولئك الذين أوصى النبي(ص) بمودّتهم.

آهٍ... وأخذت الحسرات والآهات تُسعر صدره ثم أخذ يتمتم بصوت منخفض:

والآن ماذا سيكون نصيبك أنت يا مولاي الحسين(ع)؟

فيجهش بالبكاء ويحاول أن يخفي بكاءه، فيكفكف دموعه، ويأخذ موقعاً يصلي المغرب والعشاء، ثم يسلِّم على رسول الله(ص) عند باب الخروج متجهاً إلى منزله بما حصل عليه من أخبار تخصّ خروج الإمام الحسين(ع).

وفي الطريق يلتقي أخاه مسعوداً.

مسعود ـ أهلاً عبد الله ، كيف حالك وحال والدتي وجابر وزوجاتكما والأولاد؟

عبد الله ـ الحمد لله الكل بخير.

مسعود ـ [مبتسماً] ـ وكيف حال أختي صفية؟ ألم يأتها خاطب بعد؟

عبد الله ـ الحمد لله، هي بخير، وكل شيء في أوانه.

وكان واضحاً على عبد الله أنه يريد اختصار الحديث وأن ثمةَ أمراً ما يشغله ويؤرقه. وشعر بذلك مسعود، إذ تركه عبد الله مستأذناً بشكل جعل مسعود يفكِّر في سرّ قلقه وارتباكه.

وما إن وصل عبد الله إلى بيته حتى فُتحت الباب قبل أن يطرقها، وكانت زوجته واقفة خلف الباب تحمل ولدها على كتفها مرتقبة عودته. بخوف وقلق، فاستقبلته بلهفة الخائف.

زوجة عبد الله ـ حمداً لله على سلامتك.

عبد الله ـ ولِمَ كلّ هذا القلق؟ ماذا حدث؟

زوجة عبد الله ـ لقد سمعت من بعض الجيران أن الخطر يحوم حول أهل بيت النبي(ص) وكل مَن يتولاهم ويتبعهم حتى من يتولّاهم بالحب فقط. وقد أُلقي القبض على عدد من الموالين لهم وبعضهم من أقاربنا ومعارفنا، وعندما تأخرت طار لبّي ياسندي وخفت عليك أشدّ الخوف.

عبد الله ـ قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا. أين أُمي؟ نادِها وكذلك جابر وزوجته وأختي صفية وأنتِ، هلمّوا كلّكم إلى الغرفة الداخلية.

زوجة عبد الله ـ ألا تأكل عشاءَك؟

عبد الله ـ في وقت لاحق.

ويتوجّه الجميع إلى الغرفة الداخلية ويشعل جابر سراجاً صغيراً.

أغلقوا النوافذ والأبواب، والتفَّ الجميع حول عبد الله، وبادرت الأم بلهفة قائلة:

ـ ها يا ولدي أخبرني بكل ما عرفت عن ريحانة النبي(ص) وقرة عين الزهراء البتول عليها السلام.

وما إن ذكرت أم عبد الله اسم الزهراء على شفيتها حتى خنقتها العبرة فأجهشت بالبكاء. وبكى الجميع هُنيئة على مصائب الزهراء ومظلوميتها، فاسمها أصبح مقروناً بالحزن والبكاء، فلا زالت أصداء أنّاتها تدوّي في أرجاء المدينة ووديانها وجدرانها؛ إذ ما لبثت دمعتها على أبيها النبي(ص) لم تجف حتى هوجمت بالنار على باب دارها ودُفع عليها باب دارها فعُصرت بين الحائط والباب، وأُهينت وأسقط جنينها، فلم تُرَ بعد وفاة أبيها غير أربعين صباحاً حتى لحقت به فما زالت دموعها تشهد على ظلم تجرّعته، وقهرٍ ذاقت مرارته، وحقّ ضاع، وحُرمةٍ انتُهكت، ونارٍ أُضرمت في قلبها وقلوب المؤمنين إلى يوم القيامة. فهذه سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين ويكون هذا حالها؟! فيما للمصيبة ويا للهول!

ويشهد على هذا الظلم العظيم شاهد صدقٍ لا يستطيع أن يردّ عليه أحد مهما بلغ من المكر والدهاء وفي أي زمان ومكان. هذا الشاهد الحق هو قبرها المجهول الذي لا يعرفه المسلمون ولن يعرفوه حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

ثم تتأوه أم عبد الله وتقول: السلام عليكِ أيتها المظلومة المقهورة، السلام عليكِ يا سيدة نساء العالمين. ويسلِّم عليها

الجميع ثم يسترجع الجميع (إنا لله وإنا اليه راجعون).

ويبدأ عبد الله بالحديث:

ـ كما تعرفون فإن الإمام الحسين(ع) لا يستطيع أن يسكت عن يزيد كما لم يسكت من قبل عن أبيه معاوية، هل تذكرون عندما أرسل معاوية للإمام الحسين(ع) يهدّده ويتوعّده طالباً منه أن يترك أمور القيادة الإسلامية ويترك الحبل على الغارب ويترك شؤون الأمة الإسلامية له يعبث بها كيف يشاء بعد أن قضى على الإمام الحسن(ع)، وعندها أجابه أبو عبد الله (ع) بجوابٍ شديد اللهجة عن ظلمه وخروجه عن كتاب الله وسنة نبيه، ونَددً بما اقترفه من جرائم تجاه الأحرار الصالحين من أصحاب رسول الله وغيرهم، كقتله للصحابي الجليل حجر بن عدى رضوان الله عليه وعمرو بن الحمق الخزاعي ورشيد الهجري وغيرهم من الأحرار».

لقد فضح الإمام الحسين معاوية برسالته التي كشف فيها عن زيف معاوية وخداعه لكثير من المسلمين، هل تذكرون تلك الرسالة؟ لا زلتُ أحفظها عن ظهر قلب، ويجب أن يحفظها جميعكم.

جابر ـ أخي عبد الله، أُذكر لنا ذلك فإني لا أتذكر تلك

الأحداث بشكل جيد.

عبد الله ـ نعم بكل سرور.

أما رسالة معاوية فقد جاء فيها: «أما بعد فقد انتهت إليّ منكَ أمور لم أكن أظنّك بها رغبة عنها، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك، في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها فلا تنازع إلى قطيعتك. واتق الله، ولا تردن هذه الأمة في فتنة، وانظر إلى نفسك ودينك وأمة محمد، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون».

فأجابه أبو الأحرار ريحانة رسول الله(ص) بكتاب عرّفه فيه منزلته: «أما بعد فقد جاء في كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أُمور لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وأن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى. وأما ما ذكرت أنه رقى إليك عني، فإنما رقا الملّاقون، المشّاءون بنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون. ما أردتُ حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلّين، حزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم، ألستَ قاتل حجر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف... الخ».

ولما أيقن معاوية أن وجود الإمام الحسين(ع) بالمدينة سوف يمنع حصول البيعة ليزيد من أهل المدينة جاء بنفسه إلى المدينة ـ وتذكرون ذلك ـ جاء **يشحذ** البيعة لابنه يزيد بالخلافة، فوجد أن من يهرول وراء موكبه وينافق في الولاء إنما هم رعاع الناس، وأن الذين عليهم الاعتماد من أعلام الصحابة وقريش، وعلى رأسهم بنو عبد المطلب وسيدهم الإمام الحسين(ع)، هم الذين يقضّون مضجعه في المدينة، فقد حاول أن يمدح لهم يزيد وينسج الأباطيل حول صلاحه، فكان له الإمام الحسين(ع) بالمرصاد، وواجهه في أحد المجالس التي عقدها لبيعة يزيد، فقال له الإمام فيما قال: «وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد تريد أن توهم الناس في يزيد... وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقرح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة... الخ».

عندها نظر معاوية لابن عباس وقد كان جالساً جنبه فقال له:

ما هذا يا ابن عباس؟ فقال ابن عباس: «لعمر الله إنه لذرية الرسول وأحد أصحاب الكساء».

ويتابع عبد الله حديثه بعد أن تناول قليلاً من الماء:

ـ وحَدَثَ ما حَدَثَ مما أشعر معاوية بأن الأمر ليس سهلاً يسيراً، فرجع إلى الشام ـ عاصمة حكمه ـ وقد ازداد حقداً وعداءً على آل الرسول ومن هم أولىٰ بالقيادة والرعاية لهذه الأمة.

ثم مات معاوية واستلم يزيد مقاليد الحكم والخلافة، وكان أعلم الناس بأنه لا يستحقها، وأعلم الناس برفض الإمام الحسين لهذه السرقة العظمى، وأنه لن يرى باطلاً ومنكراً ويرضى به. فأرسل إلى واليه بالمدينة بأن يبادر إلى أخذ البيعة من الإمام الحسين(ع). فقام واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بأمر من سيده يزيد باستدعاء الإمام الحسين(ع) في غلس الليل.

وهنا فهم الإمام الحسين(ع) ما يريد منه، فطلب فتية أهل بيته من بني هاشم وعلى رأسهم عضده وأخوه قمرهم أبوالفضل العباس(ع) وأمرهم بالجلوس خارج الدار، فإن سمعوا صوته قد علا فعليهم أن يقتحموا الدار.

ودخل الإمام(ع) على الوليد بن عُتبة فاستقبله بحفاوة وتكريم ثم نعى إليه موت معاوية، وما أمره به يزيد من أخذ البيعة من أهل

المدينة عامّة ومن الحسين خاصة... .

عندها استمهله الإمام إلى الصباح ليجتمع الناس. وقد أراد الإمام(ع) أن يعلن أمامهم رفضه الكامل لبيعة يزيد، ويدعوهم إلى التمرد على حكومته.

وكان مروان بن الحكم ـ عميد المنافقين ومستشار الباطل ـ حاضراً في المجلس فاندفع لإشعال نار الفتنة ـ كما فعلها من قبل أيام عثمان بن عفان ـ وقال له: «لئن فارقك الساعة، ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، إحبسه فإن بايع وإلا ضربت عنقه...».

فوثب أبيّ الضيم الإمام الحسين(ع) في وجه مروان وقال له محتقراً: يا بن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبتَ والله وأثمت... .

جابر ـ متأوهاً متأففاً ضارباً كفا على كف.

عبد الله ـ بعد ذلك توجّه الإمام(ع) للوليد بن عُتبه قائلاً:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحلّ الرحمة. بنا فتح الله وبنا ختم. ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق. ومثلي لا يبايع مثله ولكن نصبح وتصبحون ونظر وتنظرون، أينا أحقّ بالخلافة».

جابر ـ وبعد ذلك؟ أكمل يا أخي.

عبد الله ـ بعد ذلك خرج مولاي الإمام الحسين(ع) يلفّه بنو عمومته الهاشميون يتوسّطهم قمرهم العباس بن علي(ع). ثم بعد ذلك سمع أهل المدينة أن الإمام(ع) قد غادر المدينة متوجّهاً إلى مكة، موضّحاً موقفه بوضوح تام.

خرج (ع) مع أهل بيته وأنصاره الكرام ومعهم نساؤهم وأطفالهم.

خرج مولاي الحسين(ع) بعدما طاف بقبر جده رسول الله(ص) مودعاً يبثّ إليه همومه وأحزانه، كأنه يشكو إليه جفاء هذه الأمة التي تنكّرت للحق وجحدت فضل النبي عليها، وآجروه في عترته وقرابته بأن صبّوا عليهم العذاب والمصائب التي لوصُبّت **على الجبال لصارت هباءً منثوراً ، وكأنه يقول لجده**

ضمني عندك يا جد في هذا الضريح علني يا جد من بلوى زماني استريح

وودع قبور أهل بيته وأمّه الزاكية وأخيه المجتبى، ثم لوى عنان فرسه باتجاه أم القرى ترفرف فوق راسه خفاقةً راية عضده وأخيه العباس(ع).

ثم تنهَّد عبد الله وقال بشيء من الحسرة يشوبها القلق والخوف:

ـ تباً لكِ يا يثرب! لقد هاجر إليك رسول الله هارباً من ظلم

مكة، طالباً عندك النصرة فسُمّي أهلك بـالأنصار، وهـا أنتِ الآن تخذلين ابن بنته فيهجرك ويغادر دون أن يجد المنعة والحمية.

وخيَّم جوّ من الحزن والكآبة على أفراد العائلة وكان أشدّهم حزناً أم عبد الله .

وارتفع صوت زوجة جابر بالبكاء وبدأ أنينها واضحاً وهـي تقول بصوت ضعيف:

ـ آه لفراقك يا أبا عبد الله الحسين، من سينشر علم القـرآن والسنة بعدك بين أهل المدينة ؟!

وتجيبها زوجه عبد الله مكملة ومعقبة على كلامها:

ـ لقد كان باباً متصلاً لعلم ابيه أمير المؤمنين ، مازال يفيض به على المسلمين.

أما جابر فقد قام من مكانه لا يعرف ماذا يصنع، فأخذ يذهب ويعود داخل الغرفة كالأسد الحبيس من شدة الغيض ووجهه إلى السقف يحاول أن يخفي دموعه ولكنها تنحدر رغماً عـنه عـلى وجنتيه بغزارة.

وأجهشت أم عبد الله بـالبكاء وهـي تـتمتم بـصوت يشـوبه حشرجة الحزن:

ـ إني لأخشى أن تكون هي النهاية.

فتصعق ابنتها صفية وتسأل باستغراب وذعر:

ـ وأي نهاية يا أماه؟

أم عبد الله ـ النهاية التي طالما خفنا وخاف الموالون منها،

وتبكي فترة ثم تسكت وتقول:

ـ التي أخبر عنها رسول الله(ص).

الفصل الثالث

إخبار النبي(ص) بقتل الحسين(ع)

أم عبدالله- عندما تستقبل أي أسرة وليداً جديداً تكون فرحة مسرورة بضيفها الجديد، لكن لهفي على مولاتي فاطمة الزهراء(عليها السلام) فعندما ولَدتْ الإمام الحسين وجيء به إلى رسول الله(ص)، أخذ ينظر إليه ودموعه الطاهرة تنحدر على وجنتيه الطاهرتين، فاستغرب البيت العلوي الطاهر لماذا يبكي رسول الله ؟!

ويمتلئ قلب الزهراء بالخوف والذعر وهي ترى هذا المنظر من أبيها.

فقد روت لنا أسماء قالت:

فلما كان في اليوم من ولادة الحسين جاءني النبي(ص) فقال: هلمي ابني، فأتيته به ففعل به كما فعل بالحسن وعقَّ عنه كما عقَّ عن الحسن كبشاً أملح، وحلق رأسه وتصدق بوزن الشعر ورقاً ثم قال(ص): «يا أبا عبد الله عزيزٌ عليّ»، ثم بكىٰ.

فقلت: بأبي أنت ومي فعلت في هذا اليوم، وفي اليوم الأول فما هو؟

قال: أبكي على ابني هذا تقتله فئة باغية كافرة من بني أمية لعنهم الله، لا أنالهم شفاعتي يوم القيامة، يقتله رجل يثلم الدين ويكفر بالله العظيم.

ولم تستطع أم عبدالله أن تواصل حديثها، واختنقت بعبرتها، وانهارت تجهش بالبكاء، وأبكت السامعين.

واستدركت بعد أن كفكفت دموعها.

ـ وكذلك فإن أم المؤمنين أم سلمة تحتفظ بقارورة بها تراب أحضره جبرئيل (ع) من أرض كربلاء إلى رسول الله(ص) بأمر من العلي القدير، وأخبر النبي أم سلمة أنه إذا أصبح هذا التراب دماً فاعلمي أن الحسين قد قُتل في كربلاء.

واندهشت صفية أشدّ الاندهاش لما سمعت وقالت مستغربة:

ـ ماذا تقولين يا أُماه؟ تراب يحضره جبريل(ع) ويتحوّل إلى

دم؟! ماذا تقولين إني لا أستوعب ما تقولين؟

عبد الله ـ ليس الحسين شخصاً عادياً يا أختي العزيزة، ولا تستغربي من أمر الله، وكون التراب يتحوّل دماً بمقتل الحسين. وهو ليس عجيباً أيضاً على المؤمنين الذين يعرفون قدر الإمام الحسين. إن للحسين(ع) أسراراً لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، ولكن الجاهلين عموا وصموا وضيّعوا أنفسهم بتركهم للإمام الحسين، ومن قبله ضيّعوا أخاه وأباه وامه صلوات الله عليهم.

* * *

إن أم عبد الله امرأة مؤمنة موالية لآل البيت المحمدي عاشت زمن النبي وأهل بيته، وعندها الكثير من الأخبار التي تخاف بوجبها من سفر الإمام الحسين(ع) هذه المرة وتخشى عليه.

ثم توجهت بالسؤال إلى عبد الله:

ـ وهل علمتَ من معه من أهل بيته؟

عبد الله ـ معه كثير من نساء البيت الهاشمي وزوجاته وأطفالهم، وخرجت معه على رأسهم أخته العقيلة زينب (عليها السلام).

وما إن سمعت أم عبد الله باسم العقيلة (عليها السلام) حتى

صاحت مقاطعةً إياه.

ـ آه لفراقكِ يا مولاتي زينب، من لنا ولنساء المدينة بعدكِ يا قرة عين أبيك؟ من سينشر العلم والفضل والفضيلة بين نساء المدينة يا بنت باب علم النبي؟ وماذا ينتظركِ في هذا السفر المشؤوم؟

لقد كانت زينب عالمة آل محمد(عليهم السلام) في عصرها، وامتازت بقوة الشخصية وصلابة الموقف لقد شاهدت زينب (عليها السلام)المصائب تلو المصائب، فقد شاهدت مصيبة أمها الزهراء وفراقها على ذلك النحو الأليم في المدينة، ثم شاهدت فراق أبيها وهو مخضب بدمه الطاهر من ضربة ابن ملجم ـ لعنه الله ـ في مسجد الكوفة، ثم رجعت إلى المدينة لتشاهد الحسن السبط وهو يقذف كبده مسموماً قاضياً نحبه، وها هي ذاهبة اليوم إلى باب البلاء الأكبر الذي يفوق كل ما شاهدتْ من مصائب!،

لله درّكِ يا بنت عليّ! أي قلب لديكِ؟؟ أي امرأة في الوجود تستطيع أن تتحمل هذا القدر من البلاء؟ ولِمَ؟ ولأيّ جُرمٍ؟

وقد يزول بعض العجب من صبر زينب لو عرفنا أنها زينب بنت أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وأمها فاطمة الزهراء (عليها السلام). نهلت العلم والإيمان منهما ومن أخيها الحسين. فهي

عالمة غير معلّمة، فاهمة غير مفهّمة. هكذا وصفها الإمام السجّاد(ع) لأنها كبرت في ربوع العصمة وأحضان الولاية وأجواء الوحي وعطر الإيمان ورحيق الرسالة، وزُقت العلم زقاً من أبيها وأمها وإخوانها، فلهذا تمخضت شخصيتها بالرفعة والشموخ **من جانب والعلم والتقوى من جانب .**

فمن هذا وذاك، تأهلت لمشاطرة أخيها الحسين ثورتهُ العظيمة وأُلقي على عاتقها أمر التبليغ، فحملت هذه المسؤولية بكامل اختيارها لتكون حقاً بنت علي (عليه السلام).

وتتابع أم عبد الله:

ـ وهل خرجتْ معه أم البنين (ام العباس قمر بنى هاشم)؟

عبد الله ـ لا، لم تذهب معه، بل بقيت في المدينة.

وتصرخ أم عبد الله مقاطعة إياه من شدة فرحها واستبشارها:

ـ الحمد لله، الحمد لله الذي أبقاكِ لنا ولنساء المدينة وأهلها، ذخراً وملاذاً نحتمي به ونلوذ إليه في الشدائد.

أم البنين امرأة في القمة بكل ما في الكلمة من معنى، وأظن أنها بقيت في المدينة لترعى من بقي من آل البيت في المدينة، وترعى شؤوننا وشؤون المؤمنات ومن يحتاجون إليها في أمور دينهم ودنياهم، وهي أهل لهذه المهمة وكفء.

ـ تابع يا ولدي كلامك، وآسفة لمقاطعتك فلم أتمالك فرحتي.

عبد الله ـ لقد بقيت أم البنين في المدينة لكنها أرسلت أبناءها الأربعة وعلى رأسهم العباس بن علي، مع أخيهم وإمامهم الحسين(ع).

أم عبد الله ـ ولم تدخر لنفسها حتى ولداً واحداً يعينها؟!

آه لهذه المرأة العظيمة! تُؤْثِر إمامها الحسين(ع) بأولادها الأربعة وهي في أمسّ الحاجة لواحد منهم، لكنها اختيار علي(ع) وأخيه عقيل عن معرفة ودراية بها وبأصلها ومعدنها.

وتبادر ابنتها صَفية بسؤال أمها:

ـ ما هذه الروحية التي تمتاز بها مثل هذه الأم التي ترسل كل أبنائها في سفر تحوطه الأخطار من كل جانب ولا تبقي حتى واحداً منهم معها!! كيف تستطيع ذلك؟

إنني لا أستطيع أن أفهم كيف تحدث هذه الأمور، ولا أتمكن أن أستوعبها!!

أم عبد الله ـ إيه! إنك لو عرفت من تكون هذه السيدة العظيمة الجليلة لما استغربتِ، ولتوقعتِ منها أكثر من ذلك؟

إنكِ لا تعرفين مكانتها عند أهل البيت ومكانتها عند قومها

وعشيرتها، فهي ليست بامرأةٍ عادية، بل لها من المجد والشرف والعناية الإلهية الشيء الكثير. فهي كما سُمّيت سيدة نساء العرب.

صفيّة ـ أإلى هذه الدرجة؟ لقد شوَّقتِني يا أماه أن أعرفها أكثر. أخبريني يا أمي كيف وصلتْ هذه السيدة إلى هذه الدرجة من الرفعة والعظمة؟

أم عبد الله ـ لقد تأخر الوقت كثيراً، ولولا ذلك لأخبرتكِ بما أعرفه عن مولاتي العظيمة أم البنين.

صفية ـ لم يبق إلا سويعات على صلاة الفجر يا أمي ولا أعتقد أن أحداً منا يستطيع النوم هذه الليلة، ولنكمل حديثنا عن هذه السيدة الجليلة.

أم عبد الله ـ إذن فاتركيني أنتهي من صلاة الليل وأختلي بها مع ربي بضع الوقت ثم نعود لمجلسنا وحديثنا، فليس بي رغبة إلى النوم.

وقامت أم عبد الله الى مصلاها تؤدي ما اعتادت عليه منذ سنين طويلة، فلقد تزوّدت التقوى والإيمان وكثيراً من العلم أثناء مجاورتها لبيت الرسالة والوحي، ولمعاشرتها نساء البيت الهاشمي.

و انصرفت زوجتا عبد الله وجابر كل منهما إلى غرفتها،

واعتذرتا عن عدم إمكانية عودتهما إلى المجلس لانشغالهما بالأطفال.

وساد المنزل نور وسكينة فقد أخذ كل من أم عبد الله وأبنائها (عبد الله وجابر وصفيّة) زاوية من المنزل بين قائم وساجد وتالٍ للقرآن.

وترفع أم عبد الله يديها بالدعا وتناجي ربها بصوت خافت حزين:

ـ اللهم صلّ على حبيبك محمد وعلى أهل بيته الأطهار، اللهم إنى أسألك سؤال المضطر المستكين أن تجعلنا ممن يتبع نبيك وأهل بيته، ونكون بهم من الناجين الفائزين، ولا تفرق بيننا وبينهم طرفة عين، فهم سفن النجاه.

اللهم وهذا ابن بنت نبيك وحبيبك الحسين سيد شباب أهل الجنة وسفينة نجاة أمتك ومصباح هداها، وحجتك على أهل الأرض، قد ترك داره فارّاً من الظالمين، مهاجراً في طاعتك.

اللهم فكن له خير معين وخير ناصر.

اللهم انصر من نصره واخذل من خذله، اللهم ارحم غربته بحق أمه الزهراء المقهورة المظلومة...

وما إن ذكرت اسم الزهراء حتى اختنقت بعبرتها، وانهمرت

دموعها وأجهشت بالبكاء...

واسترسلت:

ـ اللهم ليس لي الليلة حاجة سوى الحسين، أن تعينه وتنصره على يزيد وأعوانه، وأن تبلّغه مبتغاه، وهو نصرة دينك وحفظ أحكامك، وإعلاء كلمتك.

واخذل اللهم تلك القلوب المتحجرة، من الذين جحدوا نعمتك، أولئك الذين سلبت منهم نعمة الهداية...

ثم هوت الى الركوع وأتمّت صلاتها، ثم تناولت كوز ماءٍ كان على الرف وارتشفت منه جرعة.

الفصل الرابع

عظمة أم البنين

ثم ذهبت (أم عبد الله) إلى الغرفة التي كانوا يجلسون فيها فوجدت أن ابنتها قد نامت والقرآن مفتوح على يديها، فنادتها لتذهب إلى فراشها، لكن صفيّة رفضت وأصرّت وأقسمت على أمها أن تكمل حديثها عن أم البنين، فوافقت الأم.

واستأذن عبد الله لينام قليلاً، وطلب من أمه أن توقظه قبل صلاة الفجر ليذهب للحرم النبوي يصلي الفجر عند قبر رسول الله(ص) ويراقب عن كثب ما يدور وما يستجد من أحداث وأخبار.

وجلس جابر إلى جوار أخته صفية يستمعان إلى أمهما ما

غاب عنهما، فبدأت أم عبد الله بالحديث وقالت بصوت متقطع حزين بعد أن تنهّدت بعمق:

ـ أم البنين سيدة عظيمة جمعت الفضل من جانبيها، فأسرتها وقومها من جانب، واقترانها بأهل البيت النبوي من جانب آخر. فهي زوجة إمام المتقين وسيد الوصيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) وأم لأربعة من أشباله وهم: العباس(ع) الملقب بقمر بني هاشم، وعون وجعفر وعبد الرحمن. وإن لاقترانها بأمير المؤمنين مندمات تدلّ على عناية إلهية أحاطت هذه السيدة الجليلة وقصصاً عجيبة تدلّ على عظمة هذه السيدة الموفّقة.

ففيما يروى من القصص في حياة أم البنين أنه: في صباح ذات يوم أقبلت فاطمة فتاة بني كلاب تلك القبيلة المعروفة عند العرب بعلوّ نسبها وكرم وشجاعة رجالها، فقد كان يضرب بهم المثل في البطولة والشهامة والسؤدد. أقبلت تلك الفتاة الصغيرة على أمها ثمامة بنت سهل الكلابية وهي مستغربة من رؤيا رأتها، فقالت لأمها:

ـ رأيت حلماً جميلاً يا أماه.

فقالت أمها ـ خيراً رأيت وخيراً يكون يا عزيزتي.

فقالت الفتاة (أم البنين) ـ رأيت كأن قمر السماء... وثلاثة

كواكب... قد صاروا في حجري... فضممتهم إلى صدري وأنا فرحة مسرورة... وانتبهت من نومي!

فقالت أمها ـ هلمي نذهب إلى من يعبر لنا هذه الرؤيا.

واصطحبت الأم فتاتها الوحيدة إلى من عُرِفَ بتعبير الرؤيا. وكان جوابه بشرى لها. ويا لها من بشرى!.

لقد قال للأم: ـ أيتها السيدة إن صدقتْ رؤيا فتاتك هذه، فإنها تتزوج من رجل عظيم تنجب له أربعة بنين أكبرهم يكون بينهم وبين عشيرته كالقمر بين الكواكب والنجوم.

صفيّة ـ يالها من سيدة محظوظة.

جابر ـ ويا لأبنائها من حظٍ وافر بأم كهذه.

أم عبد الله ـ وفي رواية اخرى أن الفتاة الصغيرة (أم البنين) جاءت أمها فقالت: «يا أماه إني رأيت في منامي رؤيا البارحة، رأيت كأني جالسة في روضةٍ ذات أشجار مثمرة وأنهار جارية، وكانت السماء صافية والقمر مشرقاً، والنجوم ساطعة، وأنا أفكر في عظمة خلق الله تعالى من سماء مرفوعة بغير عمد، وقمر منير، وكواكب زاهرة. فبينما كنت كذلك (في هذا التفكير ونحوه) وإذ أرى كأنّ القمر قد انقض من كبد السماء ووقع في حجري وهو يتلألأ نوراً يغشي الأبصار. فعجبت من ذلك، وإذا بثلاث نجوم

زواهر قد وقعوا في حجري وقد أعشى نورهم بصري، فتحيرت من أمري مما رأيتُ، وإذا بهاتف قد هتف بي أسمع منه الصوت ولا أرى الشخص وهو يقول:

بشراكِ يا فاطمة بالسادة الغرر

ثلاثة والزاهر القمر

أبوهم سيد في الخلق قاطبة

بعد الرسول كذا قد جاء في الخبر.

و هكذا تمرّ السنون والأعوام على تلك الطفلة، ولربما كانت الرؤيا عالقة في ذهنها عندما طرق المجد بابها وظلّلتها غمامة الرحمة، كان ذلك في سنة ٢٥ للهجرة النبوية عندما أراد سيدي ومولاي أمير المؤمنين أن يختار من بين النساء امرأة تستحق أن تكون جليسة أبنائه الحسن والحسين وزينب(ع) تكون لهم خلفاً عن أمهم الزهراء(ع) المظلومة روحي فداء لثراها المغيّب، وتستحق أن تكون أمّاً لأولاده، فذهب إلى أخيه عقيل بن أبي طالب وكان نسّاباً في العرب يعرف الأنساب حقّ المعرفة إذ طلب منه أن يختار له امرأة ولدتها الفحولة من العرب إذ قال لأخيه عقيل: «انظر إلى امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً» يبتغي بذلك الأنساب الطيبة العريقة، فإن العرق

دساس.

ويشير أخوه عقيل على أمير المؤمنين إلى كريمة بني كلاب ويشهد لهم بأن ليس في العرب من هو أشجع من آبائها ولا أفرس، فيقع اختيار الأمير(ع) على فاطمة العامرية الكلابية، فاطمة بنت حزام بن عامر بن كلاب بن ربيعة.

وهكذا يرسل في طلبها فتقبل مسرورة. ويالها من حليفة الحظ العظيم والنعمة الإلهية الكبرى أن دخلت البيت الهاشمي وصارت قرينة باب علم النبي(ص) وكان عمرها آنذاك عشرين عاماً.

و تتألق، ويتألق معدنها الطيب منذ اللحظات الأولى فيروى أنها عندما زُفّت إلى بيت زوجها أمير المؤمنين مع أهلها لم تدخل البيت إلا عندما طلبت من ذويها الانتظار في الخارج حتى تخرج إليهم. فدخلت سيدتي الدار برهةً ثم خرجت وقد اغرورقت عيناها بالدموع وسمحت لأهلها بالانصراف. وعندما سألوها عن سبب ذلك أخبرتهم بأنها سألت الحسن والحسين وزينباً عليهم السلام، وقالت: هل تقبلونني خادمة عندكم في الدار؟ وعندما لم يرفضوا وجودها معهم أمرت أهلها بالانصراف.

لقد أثبتت هذه العامرية الأصيلة علماً ومعرفة منذ فتراتها

الأولى في بيت ضمّ ثلاثة من أصحاب الكساء (علي والحسن والحسين عليهم سلام الله).

و يروى أنها طلبت من أمير المؤمنين طلباً عجيباً.

صفيّة ـ أو تطلب هذه السيدة؟ لا أظن ذلك؟

أم عبد الله ـ ليس كما تعتقدين! لقد طلبت من الإمام(ع) أن لا يناديها باسمها فاطمة. وعندما سألها عن السبب، قالت: إنها لاتريد أن يسمع أبناء فاطمة الزهراء هذا الاسم فيتذكرون أمهم فاطمة الزهراء فتنكسر قلوبهم.

وهكذا برهنت سموّها ورفعتها، وأحسنت سيرتها مع الحسنين (عليهما السلام) إذ قالت: «والله لأكونن للحسن والحسين كالأم الرؤوم».

وهكذا عاشت هذه الدرة العظيمة في بيت علي. ويعلم الله كم شربت من علمه الغزير، وكم جسّدت من صفات الإيمان والتقوى والحكمة! لذا فلا غرو أن يكشف أمير المؤمنين عن بعض الأسرار الغيبية لأم البنين وأخباراً لايمكن أن تحتملها امرأة عادية ما لم تكن قد وصلت مرتبة عالية في العلم الغزير والتقوى، وخصوصاً إذا كانت هذه الأخبار عن مصائب ومآسٍ تجري على فلذة كبدها كالعباس ولدها الأكبر الملقّب بقمر بني هاشم.

وتسكت أم عبد الله هنيئة تنتهي من عبرتها وتكفكف دموعها.

صفيّة ـ ها يا أماه! ماذا قال لها عن العباس؟ لقد ملأتِ قلبي خوفاً وقلقاً!

أم عبد الله ـ لقد ولد العباس عام ٢٦ هـ في المدينة فتلقّفه أمير المؤمنين بالأحضان وهو ينظر إلى وليده الجديد الذي كان يتحرى الزواج من أمه أن تكون من أشجع بيوتات العرب ليكون ولدها رداءً لأخيه السبط الشهيد. ورأت أم البنين أمير المؤمنين في بعض الأيام أجلس أبا الفضل عليه السلام على فخذه وشمّر عن ساعديه وقبلهما وبكى، فأدهشتها الحال لأنها لم تكن تعهد صبياً بتلك الشمائل ينظر إليه أبوه ويبكي من دون سبب ظاهر. ولما سألته عن السبب أخبرها بتفاصيل ما سيجري على العباس من القتل والتقطيع في أرض الغربة. ثم بشّرها بمكانة ولدها عند الله وما حباه عن يديه بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة، فقامت تحمل بشرى الأبد والسعادة الخالدة.

جابر ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، (لله الحكمة البالغة).

أم عبد الله ـ إن هذه الأخبار الفظيعة لا يستطيع حملها إلا الممتحنون الصابرون كأمّ البنين وأم سلمة زوجة النبي(ص).

بينما يصحو عبد الله من نومه ويجلس إلى جانب إخوته مطرقاً بعد أن ألقى التحية، تستأنف الأم كلامها:

ـ لقد جاء في الخبر أن جبرئيل(ع) جاء إلى... .

ويطرق الباب أخوهم مسعود الذي لم تكن له ميول تجاه أهل البيت، فهو ممن جرفته الدنيا الدنيئة إلى القاع وترك قمم النور والتقوى والفضيلة.

و يفتح له الباب أخوه جابر فيسلّم ويجلس، وتصمت أم عبد الله عن الكلام، وتمرّ فترة صمت ينهيها مسعود إذ يبادر بسؤال أرعن أغضب أمه، فتركت المكان وقامت من مجلسها إلى حجرتها، واشتبك هو مع أخيه جابر. لقد كانه سؤاله كالصاعقة على قلب أمه الحزين على الحسين، فآثرت الصمت والهجر، وهي تعرف عدم الجدوى من الكلام مع مسعود عبد الدنيا. وكان سؤاله:

ـ هل سمعتم عن خروج الحسين ورفضه بيعة يزيد، يشقّ بذلك عصا المسلمين؟؟

و مسعود يعلم علم اليقين موقف عائلته من الإمام الحسين وأهل البيت، لكن أراد أن يقول ما يثيرهم ويبثّ في نفوسهم الخوف من متابعة أهل البيت(ع) وما يؤول إليه أمرهم. وكمحاولة

بائسة يدعوهم بصورة غير مباشرة إلى متابعة بني أمية، وهو بذلك يخلق لنفسه المبررات، شأنه شأن غالبية الناس «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين».

لكن أفراد عائلته ليسوا من هذا النمط بل على النقيض من ذلك.

وينظر جابر إلى خروج أمه، فيهبّ واقفاً في وجه مسعود، وبغضب شديد وبصوت عال:

ـ مَن أنت ومَن تكون حتى تتكلم عن الإمام الحسين بهذه الصورة!!

عبد الله مهدئاً أخاه ـ ما هكذا يا جابر. اجلس وهدّئ من روعك، أخوك مسعود أكبر منك ويجب عليك احترامه.

جابر ـ إنه لم يحترم نفسه؟

عبد الله ـ جابر! إهدأ واستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

ويجلس جابر مكانه ويستغفر الله وهو لايزال يلهث غضباً مطرقاً إلى الأرض.

ويتوجّه عبد الله إلى مسعود:

ـ لا ينبغي أن تتكلم عن الإمام الحسين(ع) بهذه الصورة ياسعود، فهو إمامي وإمامك وتعلم فضله حق المعرفة، ولا داعي

أن أقرأ عليك الأحاديث والروايات في فضله وأحقيته بأن يمسك زمام الأمه الإسلامية، ولربما تكون أعرف مني بذلك لكثرة اطلاعك وتقدم عمرك.

مسعود [مطرقاً، خجلاً] ـ إني أخاف عليكم من عيون السلطة ولا آمن عليكم، فكم من الذين نعرفهم تواروا عن الأنظار ولا نعرف مصيرهم لأنهم يوالون أهل البيت، وإني أخاف عليكم هذا المصير.

جابر ـ ونحن نخاف عليك من المصير الأسود الذي ينتظرك يوم تموت.

مسعود ـ لو حدث لكم مكروه فإني غير مسؤول عن ذلك، أنصحكم بالابتعاد عن طريق السلاطين وكونوا مع الناس، ولم آمركم بترك الصلاة والصيام وترك الحج

عبد الله ـ لولا عناء نبيك محمد(ص) وسيف إمامك علي(ع) لما صليت ولا صمت ولا حججت. وبدون أهل البيت لا تبقى صلاة ولاصيام ولا حج ولا أي شيء من الدين. ليس الدين كتاباً يقرأ بل لابد للدين من حامٍ يقوم عليه ويحفظ أهله من الانحراف، ولابد للقرآن الكريم من حامٍ ومفسّر، وقد وكّل الله ذلك لأهل بيت نبيه(ص). ألم يقل النبي(ص): إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله

وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

فكيف تريد منا أن نترك أهل البيت إلى حيث الضلال، والله لا نتركهم أبداً ولو قطعّونا إرباً بالمناشير. وإني لأدعوك يا أخي بملازمتهم مهما كانت النتائج، وليحفظنا ويحفظك الله تعالى.

لكن مسعود كان غارقاً في الدنيا لا يعي قلبه ما سمع. يفكّر بمصالحه وتجارته ويخشى من عيون يزيد فيبالغ في إظهاره الولاء لهم.

و لربما طلبوا منه عوناً في الإخبار فيعينهم، وهنا مكمن الخطر. إن من يترك الحق لابدّ له أن يتبع خطوات الباطل مجبراً حتى توصله إلى الهلاك.

ويخرج مسعود وهو يقول:

ـ لقد حذّرتكم وقد أعذر من أنذر. إذا وقعتم في مصيبة فلا تسحبوني معكم ولاتذكروا أني منكم. قال ذلك وخرج.

ويغلق جابر الباب خلف أخيه بكل قوته ويرجع إلى مكانه وهو يتأفف من أخيه ويؤلمه ما هو عليه من ضلالة.

و تذهب صفية تنادي أمها.

وتعود الأم وتقول لهم:

- إني أعرف مسعود، لايفتح قلبه لكلامكم مهما كان، فلقد أعمته الدنيا وزبرجها، اسألوا الله أنه يهديه، هذا كل ما نستطيع أن نفعله.

صفية - لقد أفسد علينا مسعود حديثنا. أرجوك يا أماه أن تكملي حديثك.

و يعود المجلس للانعقاد كما كان.

الأم - أين كان كلامنا؟

صفيّة - كان كلامك عن إخبار النبي(ص) والإمام علي(ع) عن المغيبات التي تجري على أهل البيت(ع).

الأم - نعم لقد جاء في الخبر أن رسول الله(ص) أخبر فاطمة الزهراء بما يجري على ولدها الحسين(ع).

فتخنقها العبرة ولا تستطيع أن تكمل حديثها وتمسح دموعها و تسكت مرغمةً.

الفصل الخامس

الحسين يخبر عن مقتله

عبد الله ـ هل تعلمين يا أمي أن أم المؤمنين أم سلمة قد حاولت ـ كما سمعت ـ أن تمنع الإمام الحسين (ع) من الخروج، فقد فزعت حينما علمتْ أن الإمام الحسين قد عزم الخروج إلى مكة، فهرعت إليه وقالت له بصوت حزين: «يا بني لا تحزني بخروجك، فإني سمعت جدك رسول الله(ص) يقول: يقتل ولدي الحسين بأرض العراق».

و تقاطعه أم عبد الله:

ـ إلى العراق؟؟

عبد الله: لكأنما تعرف أم سلمة بأن لا رجعة للإمام الحسين

إلى المدينة، وأن هذه الظروف تسير بالإمام الحسين إلى العراق بعد مكة.

و يكمل عبد الله:

ـ نعم قالت له: «سمعت جدك رسول الله (ص) يقول: يُقتل ولدي الحسين بأرض العراق بأرض يقال لها كربلاء، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي».

فأجابها الإمام بعزم ورباطة جأش قائلاً: «يا أماه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء الله عزوجل أن يرى حرمي ورهطي مشرّدين، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيّدين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً».

فالتاعت أم سلمة ورفعت صوتها قائلة: واعجباه فأين تذهب وأنت مقتول؟!

فأجابها الإمام وهو ساخر من الموت وهازئ من الحياة قائلاً: «إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإنه لم أذهب غداً ذهبت بعد غد، وما من الموت بد، وإني لأعرف اليوم الذي أُقتل فيه، والساعة التي أُقتل فيها، والحفرة التي أُدفن فيها، كما أعرفك، وأنظر إليها كما أنظر إليك.

و تصرخ أم عبد الله:

ـ روحي لك الفداء يا ريحانة الرسول! روحي لك الفداء يا قرة عين البتول! ليتني وأولادي نكون لك الفداء يا مولاي. ثم تنحب وتبكي هي ومن معها.

وبعد برهة تسأل أم عبد الله:

ـ وأين يكون الآن إمامك الحسين(ع)؟

عبد الله ـ على مشارف مكة.

* * *

وهكذا خرج الإمام الحسين(ع) من المدينة متوجهاً إلى مكة وسط ضجّة محبيه عليه، وخوف أعدائه مما يدور في ذهنه ومما يخطط له في مواجهة كيد يزيد ومكره. لكن هيهات أن يغلب كيدُ يزيد فطنةَ الإمام الحسين وعلمه ودرايته في الأمور بالشكل الصحيح الذي يحفظ مصلحة الأمة الإسلامية على أكمل وجه، وإن كان ذلك على أشلائه المقطَّعة ودمائه المتناثرة، وآهاته وحسراته تملأ أفاق الكون كله تقطِّع نياط أفلاكه.

ويصل الإمام الحسين إلى مكة كما وصلها من قبل جده (ص) يوم فتح مكة، مع الفوارق الكثيرة، فقد جاءها رسول الله وقد أرغم أنف بني أمية، بينما جاءها الإمام الحسين تاركاً خلفه بطش بني أمية، متمثلاً في يزيد الذي يحلم في بيعة الإمام الحسين له

بالخلافة.

ورسول الله وابنه الحسين يسيران في خط واحد على نفس النهدى الذي رسمه الله لهم ولأهل البيت إلى آخرهم مهدي الأمم.

* * *

وتمضي الأيام والإمام الحسين (ع) في مكة، اجتمع فيها مع كثير من المسلمين عدة شهور وقام بدوره في نشر الوعي وكشف أباطيل الحكم الأموي المتسلط، وأوضح لهم خططه وأهدافه، وبدا واضحاً أنّه عليه السلام سوف يغادر إلى العراق رغم اعتراض المعترضين، ماضٍ على بيّنة من أمره، ويعرف أنه مقتول في طريق الحق لا محالة لتكون شهادته النور الذي يضيء للرسالة طريقها، غير آبهٍ بالموت الذي استيقنه على يد يزيد إذ قال فيما قال: «والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة ـ وأشار إلى قلبه الشريف ـ من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يُذلّهم حتى يكونوا أذلّ من حزم الأمة.».

وقال لأخيه محمد بن الحنفية: «لو دخلت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني».

وكان عليه السلام يلقي الحجة على ذويه قبل العامة، فقد جاء في إحدى رسائله: «من الحسين بن علي إلى أخيه محمد ومن

قِبله من بني هاشم، أما بعد، فإنه مَن لحق بي منكم استُشهد ومَن لم يلحق بي لم يدرك الفتح، والسلام.

وفي مكة وقبل خروجه للعراق يقف الامام الحسين (ع) في البيت الحرام وجموع الحجاج وأهل مكة تشخص أبصارهم إليه وهو يبين لهم ما يجب أن يعرفوه، يكشف عنهم الغشاوة التي أطبقت على بصيرتهم ويجلو ما ران على قلوبهم يبيِّن لهم باختصار نظرته للموت والحياة والمصير، ويدعوهم للهجرة إلى الله بحسن الموعظة وحكمتها. وقف فيهم خطيباً وقال:

«الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، إشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص من يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفّينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله(ص) لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة القدس، تقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده، ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى».

كان ذلك في ٨ ذي الحجة أي بيوم قبل عرفة.

وتهتزّ قلوب المسلمين، لماذا يترك الام الحسين(ع) الحج؟ ما الذي دعاه لذلك؟

ويصبح المسلمون يوم عرفة والإمام الحسين ليس معهم. فها هي راية أخيه العباس ترفرف في موكب الإمام الحسين وأهله وأصحابه وعياله، يتبعه عدد كبير من المسلمين (يفوقون الألف على بعض الروايات) يسيرون إلى حجٍ غير هذا الحج، إلى الجهاد، إلى الأمر بالمعروف، إلى مقارعة الباطل؛ «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله».

يسير هذا الركب المبارك الى العراق حيث وصلت إلى الإمام الحسين(ع) من أهل الكوفة آلاف الكتب تلقي الحجة على الإمام الحسين ليقدم إليهم لينصروه ويؤازروه ويقيموا معه دولة الحق؛ ليحكم فهم بالعدل والدين. وجاء في بعض كتبهم: «أن أقدم إلينا فقد أينعت الثمار واخضرّ الجنان».

وهكذا سارت سفينة الحسين متجهةً إلى المصير المنتظر.. إلى الفوز والنجاة.

نعم النجاة. ألم يقل رسول الله: «إن الحسين مصباح هدىً

وسفينة النجاة». نعم ذلك ماكان مكتوباً على يمين العرش، شاهده النبي(ص) عندما عرج به إلى السماء والنجاة إلى حيث الشهادة، النجاة في حدّ السيوف، النجاة في تلك المصارع الكريمة.

وليس النجاة أياماً معدودة يعيشها الإنسان أكثر من غيره كما يفهمها الجاهلون أو الغافلون، وقد كان هذا فهم الكثير ممن تبع الإمام الحسين طلباً للحكم والمنصب. وعندما أخذ الحسين(ع) يبيّن لهم مرة بعد أخرى بأن المصير ليس إلا الجهاد والشهادة، عند ذلك ترك الكثير منهم الإمام الحسين(ع) وتفرّقوا عنه، ولم يبق منهم إلّا القليل، أخذوا يتناقصون شيئاً فشيئاً ولم يبق معه إلا الصفوة الخالصة ممن حظوا بالنجاة في هذه السفينة ولم يغرقوا في بحر الدنيا الدنيئة، ففازوا ونجوا.

وهكذا ترك الحسين(ع) مكة خوفاً من غدر يزيد، كما تركها رسول(ص) خوفاً من غدر جدّ يزيد (أبي سفيان) عندما هاجر منها إلى يثرب.

ويسير الموكب المبارك، ولم يبق معه سوى (٨٢) رجلاً من أهل بيته وخاصة أصحابه وعدد من مخدرات الرسالة وعقائل النبوة في مسيرة قُدِّر لها أن تغيِّر مسيرة التاريخ الإسلامي، وأن تحفظ الرسالة المحمدية ما بقي الدهر وتبقيها على نقائها وصفائها

من تحريف المحرّفين وتزييف الظالمين.

وفي الطريق يصل الإمام الحسين إلى مكان يقال له صفاح، إذ يلتقي بالفرزدق. وبعد أن يسلّم على الامام، يسأله الإمام(ع):

- من أين أقبلت يا أبا فراس؟

- من الكوفة.

- بيّن لي خبر الناس؟

- قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أميّة، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء... وربنا كل يوم هو في شأن.

- صدقت، لله الأمر من قبل ومن بعد، يفعل الله ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأن، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم ينعدّ من كان الحق نيّته والتقوى سريرته...».

وأنشأ الإمام يقوم متمثلاً:

لئن تكن الدنيا تُعَدّ نفيسة

فدار ثواب الله أعلى وأنبل

وإن كانت الأبدان للموت أنشئت

فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

وإن كـــانت الأرزاق شـــيئاً مـقدراً

فقلة سعي المرء في الرزق أجمل

وإن كـانت الأمـوال للـترك جـمعها

فـما بـال مـتروك بـه المـرء يـبخل

وعندما وصل الإمام الحسين(ع) الحاجر من بطن ذي الرمة، وهو أحد منازل الحج عند طريق البادية كتب كتاباً لشيعته من أهل الكوفة يُعلِمهم بالقدوم إليهم، جاء فيه:

ـ «من الحسين بن علي الى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكتموا أمرَكم وجدّوا، فإني قادم عليكم من أيامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ودفع الكتاب إلى البطل الفذ قيس بن مسهر الصيداوي.

وانطلق البطل لا يلوي على شيء. وفي القادسيه أُلقي القبض عليه من قِبل شرطة ابن زياد الذين يراقبون بدقة كل من يدخل

ويخرج من العراق. فأسرع قيس الى الكتاب فمزّقه، فأُرسِل إلى ابن زياد مخفوراً. فلما مثل أمامه سأله ابن زياد:

ـ من أنت؟

ـ رجل من شيعة الحسين بن علي.

ـ لِمَ خرقت الكتاب الذي كان معك؟

ـ خوفاً من أن تعلم ما فيه.

ـ مِمَّن الكتاب وإلى مَن؟

ـ من الحسين إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم

فغضب الطاغية وصاح به وخيّره بين ثلاث:

ـ «والله لا تفارقني أبداً، أو تدلني على هؤلاء القوم الذين كُتب إليهم هذا الكتاب، أو لتصعد المنبر فتسبّ الحسين وأباه وأخاه فتنجو من يدي، أو لأقطعنك».

فأجابه البطل قيس:

ـ أما هؤلاء القوم فلا أعرفهم، وأما اللعن فأفعل.

فاعتلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله المصطفى(ص) وأكثر من الترحّم على علي وولده، ثم لعن عبيدالله ولعن أباه وعتاة بني أميّة عن آخرهم، ورفع صوته الهادر بالحق رغم أنوف الظالمين قائلاً: «أيّها الناس... إن الحسين بن

علي خير خلق الله ابن فاطمة بنت رسول الله (ص)، أنا رسوله إليكم، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه...».

فكان مصيره مصير الأبطال، فقد ألقي به من أعلى القصر. وتهشّمت عظامه، وراحت روحه مع الشهداء...

وعندما بلغ الإمام الحسين مقتله استعبر فقال: «اللهم اجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً عندك، واجمع بيننا وإياهم في مستقرّ رحمتك إنك على كل شيء قدير».

ويأتي الخبر المجلل بالمصيبة، والفجيعة التي هزّت عاطفة الإمام الحسين والعلويين وموكب الحسين(ع) بأسره.

فسال كل مدمع حتى ارتج موكب الإمام (ع) بالبكاء والنحيب.

لقد جاء خبر القتل على قلب الإمام الحسين كالصاعقة عندما قال له أحد أصحابه نقلاً عن أحد الخارجين من الكوفة:

حدثنا أنه لم يخرج من الكوفة حق قُتل مسلم بن عقيل وهانى بن عروة ورآهما يُجران في الأسواق بأرجلهما.

وبعدها يأتيه خبر استشهاد رسوله عبد الله بن يقطر الذي قام بما قام به قيس الصيداوي.

فيتوجه أحد أصحاب الإمام إليه قائلاً:

ـ «ننشدك الله إلا رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك».

ذلك لأن مسلم بن عقيل هو رسول الامام الحسين الى أهل الكوفة قتلوه وجرّوه من رجليه في سكك الكوفة بهذه الصورة دون أن يجد من يعينه أو ينصره. إذن فقد وضحت الصورة عن موقفهم تجاه الإمام الحسين وما سيكون عليه من الخذلان.

والتفت الإمام(ع) إلى بني عقيل فقال لهم:

ـ ما ترون؟ فقد قُتل مسلم؟

ووثبت الفتية معلنة استهانتها بالموت:

ـ لا والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا، أو نذوق ما ذاق مسلم.

فقال الإمام(ع):

ـ لاخير في العيش بعد هؤلاء.

وامتثل:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
فإن متّ لم أندم وإن عشت لم ألم
كفى بك عاراً أن تُذَلّ وتُرغَما

فمضى الإمام الحسين(ع) في مسيرته كما كان يمضي رسول

الله(ص) بعد كل مصيبة ومعضلة؛ ذلك لأنه على بينة من أمره ولأنه حجة الله على أرضه.

وبينما تسير القافلة إذ خفق الإمام الحسين في ظهيرة فرأى رؤيا أفزعته، فانتبه مذهولاً، فأقبل عليه ولده البار علي الأكبر وقال:

ـ ما لي أراك فزعاً؟

ـ رأيت رؤيا أهالتني!

ـ خيراً رأيت؟

ـ رأيت فارساً وقف عليّ، وهو يقول: أنتم تسرعون، والمنايا تسرع بكم إلى الجنة. فعلمت أن أنفسنا نُعيت إلينا».

وبكل ثبات ويقين ومعرفة يقول علي الأكبر(ع):

ـ ألسنا على الحق؟

ـ بلى والذي إليه مرجع أمر العباد.

فيأتي الجواب بكل ثقة طمأنينة وكأنه جواب إسماعيل عندما قال لأبيه «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

وهكذا يجيب عليّ الأكبر عندما قال:

ـ يا أبه لا نبالي بالموت.

فيجزيه الإمام خيراً بعدما توسّم فيه الإباء والصمود والصدق والورع:

ـ جزاك الله يا بني خير ما جزي به ولد عن والده...».

وتمضي المسيرة دون أن يثنيها ثانٍ.

يمضي الإمام في الصفوة من أصحابه وإخوته وأهل بيته من الرجال والنساء والأطفال.. صفوة اختارهم الله له تعينه على أداء الرسالة الثقيلة، لم يجد فيهم ـ بعد أن ذهب عنه المتخاذلون ـ مَن يفتّ في عضده أو يلومه أو يؤنّبه حتى النساء وعلى رأسهن أخته العقيلة العظيمة زينب، لم تكن لتثنيه عن الرسالة رغم ما تعلم ما سيصيبه، وهي التي تحمل له حباً لو وزن بالسماوات والأرضين لرجح؛ لأنها تعلم أن الأمر سماوي، وهي العالمة غير معلَّمة.

فيمضي الإمام (ع) ليخوض عباب الموت مع هذه الصفوة المنوّرة بالأنوار الإلهية.

يمضي بنور إلهي وبصيرة محمدية وشجاعة علوية.

يمضي وهو يعرف ما سيحصل له ولهؤلاء.

يمضي ويعرف كم من الرايات ستُرفع تحمل اسمه تنادي بصوت لإعلاء كلمة الله ودحر كلمة الباطل إلى قيام الساعة

يمضي ويعرف أن الباطل بعد قتله سيصبح ضعيفاً هزيلاً لن يقوى بعد ذلك أن يصلب عوده أمام الحق الذي سيروى من دم الحسين، فيكون عظيماً. سيبقى كما جاء ونزل على جده محمد بن

عبد الله (ص) نقياً صافياً.

يمضي ويعرف أن العزة ستكون حليفة المؤمنين أبداً، وأن الله مُتِمٌّ به نوره ولو كره الكافرون والمشركون والمنافقون.

يمضي ويعرف أن الله يعلم كم هو ثمين دم الحسين وبقدر ما هو ثمين سوف يكون المقابل ثميناً، ليس عند الله فقط ولكن حتى هنا على وجه الأرض، فإن المقابل والمثمن سيكون عظيماً. وهو إعلاء كلمهُ الله وبقاء نوره دون أن يطفأ حتى قيام الساعة.

الفصل السادس

تعذيب الشيعة

لقد كان شغل عائلة أم عبد الله الشاغل هو معرفه أخبار الإمام الحسين(ع) وتحركات وأخبار أصحابه، فكان عبد الله وجابر يهرعان إلى أم عبد الله كلما وصل إلى مسامعهما خبر عن الإمام أو أحد أصحابه وشيعته، وكانت أم عبد الله لا تكتفي بذلك بل كانت تذهب إلى الجيران والأقارب ممن تطمئن لهم وتسأل عن إمامها الحسين(ع) بين الفينة والأخرى، ثم لا يغمض لها جفن حتى تقضي الليل تبتهل بالدعاء للإمام الحسين(ع) ولأهل بيته، وكانت تخصّ أم البنين بالدعاء بأن يربط الله على قلبها ويعينها على فراق أبنائها وفراق إمامها الحسين وأهل بيته وفراق زينب(ع).

وفي يوم من الأيام احتدّ جابر مع أحد الأشخاص في المدينة أراد النيل من الإمام الحسين(ع)، إذ قال إن الحسين يريد أن يكون حاكماً وهو غير أهل ولا كفء لقيادة المسلمين، وأنه خارج على إمام زمانه يزيد ويريد أن يشقّ عصا المسلمين، وما إلى ذلك من الدعايات والأكاذيب والأباطيل التي بثّتها أبواق السلطة الأموية آنذاك والتابعة ليزيد بن معاوية، فغضب جابر ولم يتمالك نفسه ونسي أنه في جوٍ ملغوم بالجواسيس والعيون فقال:

ـ إن كنتَ جاهلاً فاسمع ما أقوله لك ولا تكن من الغافلين: إن الحسين هو إمامك: «الحسن والحسين إمامان». وهو من بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهو سيد شباب أهل الجنة كما جاء في كتاب الله،وسنة نبيه وكل ما يقوله أو يعلمه حقّ بنص القرآن والسنة، والخارج على إمام زمانه هو الفاسق يزيد، ثم مَن هو يزيد ومن الذي جاء به حتى يكون حاكماً على المسلمين؟ هل في وصية لرسول الله، أم في آية في كتاب الله؟ أم لعلم وتقوى ودراية؟ الخ.

وإذا به يرى مجموعة من الرجال تحوطه من كل جانب توجعه ضرباً وركلاً حتى سقط مغشياً. وعندما فتح جابر عينيه بعد غشيته يجد نفسه في غرفة مظلمة مغلقة فيعرف أنه في سجن

الوليد بن عتبة والي يزيد على المدينة، فيطرق برأسه مذهولاً حزيناً، ماذا حدث؟ كيف وصل إلى هذا السجن؟

فيسترجع الأحداث، فيستذكر ما وقع فيه وأن ذيول النظام على كل زقاق في المدينة يقبضون على كل من يناصر الإمام الحسين ولو بالكلمة لأنهم يخشون الكلمة ويخشون الحق ولا يريدون إلا الباطل، فهذا هو الإسلام الأموي وجابر يحدّث نفسه:

لن أخاف ولن أعيش لأكون أداة ليزيد وسأكون نصيراً للحسين بل خادماً لخادم الحسين روحي له الفداء، أما أنتِ يا أمي فإني أستميحك العذر فيما سأسببه لكِ من نار يحرق سعيرها قلبك الضعيف وجسمك النحيل المرتعش الذي أضنته السنون والأيام، فإن عذابك يبدأ من هذه الليلة عندما تنتظرينني وعيناك على باب الدار حتى الفجر تتجرعين الخوف والحسرة لحظة بلحظة قلقاً عليَّ، ثم تتأجج النار الكبرى في صدركِ الحنون عندما تعلمين بخبري وأني قد وقعت أسيراً في يد أعداء الله ورسوله.

آه عليك يا أُماه، وأنتِ في هذا السن.

كم سيكون ليلك طويلاً يا أماه؟

كم ستكون نارك مستعرة يا أماه؟

ليتكِ تسمعيني يا أماه، كي أقول لكِ بأني لا أخشى هؤلاء

الظلمة ولا أخشى الموت وليس لهم في نفسي ولا لبطشهم قدر جناح بعوضة من القدر أو الخوف، فقلب يسكن فيه الحسين لا يدخله الخوف أبداً، وأنتِ كذلك يا أماه لابد لك من الصبر على البلاء مهما عظم لأن الله أعظم شيئاً في قلبكِ العامر، ولك في أم البنين أسوة حسنة، لقد دفعتْ بأبنائها الأربعة إلى ركب مولاها الحسين(ع) دون أدنى تردد وهي التي تعرف ما ينتظرهم من البلاء والمحن.

لابد أن تصبري يا أماه فتنالين جزاء الصابرين. إني أعرف أن الظلم شنيع وأعرف أن ألمك منه سيكون فظيعاً؛ لأن قلبكِ الرحيم الرقيق لا يحتمل فكرة وجودي بيد الظالمين. لكنها الدنيا يا أماه، الدنيا التي جعلها الله دار اختبار وامتحان لبني الإنسان، ولا يتم الاختبار إلّا بأن يكون الإنسان حراً في الدنيا يطيع ويعصي، يُحسن ويُسيء ويظلم كيف يشاء، والصابرون على ظلم الظالمين أعدّ الله لهم أجراً عظيما...

ويقطع حبل أفكاره صراخ يسمعه من الغرف المجاورة، صراخ وعويل يقطّع نياط القلب، وصوت ضرب مستمر، فيخفق قلبه حزناً على هؤلاء المساكين، ويحيطه الحزن من كل جانب، فينتصب جالساً بعد أن كان مستلقياً، ثم يرفع يديه بالدعاء ويبتهل

إلى الله ويتمتم:

ـ «رباه أنت أرحم الراحمين وأنت الجبار العظيم والقوي العزيز. اللهم أني أتوجّه إليك بنبيك نبي الرحمة وأهل بيته الذين اخترتهم على علمٍ على العالمين، اللهم ليّن لنا صعوبتها وحزونتها واكفنا شرّها فإنك الكافي المعافي والغالب القاهر القادر».

ثم يتذكر رسول الله وكم أوذي وهو القائل (ص) ما أوذي نبيّ بمثل ما أوذيت.

ـ «اللهم ارحم أمي العجوز الضعيفة وخلّصني وهؤلاء المساكين إخوتي من ظلم الظالمين وأجرنا على بلائنا واحتسبه عندك يا أرحم الراحيم».

فيصمت قليلاً ثم يعود يحدث نفسه.

ـ إنّي فقط أحتاج لشيئين، أحتاج إلى الثقة بالله لأنه يراني وقادر على كل شيء فلا بد أن نثق به ونتوكل عليه وبعد ذلك لا يهمنا شيء.

والشيء الثاني هو الصبر وهذا هو مكانه، لأن الحال لا يدوم بل يقضي عليه الزمن الذي لا يتوقف، وبالصبر يمر الزمن وينتهي أي بلاء. والله يقول في كتابه «إن مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً». إذن فأي شيء غير مهم بعد الثقة بالله والصبر

ويشتدّ الصراخ والعويل من أرجاء السجن. وأصوات من أماكن مختلفة الأبعاد مما يدل على أن هذا المكان ضخم جداً ومخصص لتعذيب وإذلال وقهر المؤمنين وقسرهم على ترك الحق؛ لينعم بعد ذلك يزيد بملك عظيم ودولة عظيمة كان قد أحياها القرآن وصنعها النبي والشهداء بالدماء والدموع.

لكن هيهات يا يزيد لقد عرفنا الحق ولزمناه بعدما قال نبينا(ص): «وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلو بعدي أبداً».

وفجأة يفزع جابر من مكانه إثر صوت ركلة فتحت الباب بعنف. ودخل عليه جلف وصاح عليه بعد أن ركله برجله:

- قم من مكانك

- إلى أين؟

- لا تسأل، تقدم وأخرج.

ويمسكه الجلّاد من ملابسه بكل عنف ويدفعه لخارج الغرفة ويوسعه ركلاً وضرباً فيسقط جابر ويتعثر إلى الأرض، فتأتيه السياط والركلات من كل مكان لينهض، وهكذا حتى يصل إلى غرفة أخرى في السجن فيدفعه بها ويغلق الباب خلفه، ويجلس في جانب من الغرفة، وبعد قليل يدخل عليه شخص من باب

داخلي ويأمر أحد الخدم بأن يعطيه منشفة ليمسح الدماء المتناثرة على وجهه ورقبته، ويعطيه بعض الماء ليشرب، ثم يجلس إلى جانبه يحدّثه بكل رفق:

ـ اسمع يا جابر ، أنت شابّ ذكي وشجاع ومؤمن وهذا لا يزعجني بل يسرني فأنت مسلم وأنا مسلم ونحن إخوة يحرص كل منّا على سلامة الآخر ومصلحته، وأنا شخصياً أخشى عليك من كل سوء...

لكن جابر لا يحتمل هذا الهراء الماكر فيقاطعه وقد بدت الحدة في نبرات صوته الغاضب الحزين:

ـ قل ماذا تريد وخلّصني وبدون مقدمات.

فينزعج الجلّاد الماكر ويكظم غيظه، ويرمقه بنظرة يقدح منها الشر والإيماء للتهديد والوعيد، لكن يستعيد هدوءه الماكر من جديد ويقول:

ـ إن ما نريد أن نعرفه منك هو في مصلحة الإسلام والمسلمين من جهة، ومصلحتك وسلامتك وسلامة أهلك من جهة أخرى، وليس به ضرر عليكم.

جابر ـ ماذا تريد أن تعرف؟!

ـ هناك بعض الناس في البلاد يريدون أن يزرعوا الفتنة بين

المسلمين ولا يريدون الطاعة لولي أمر المسلمين يزيد بن معاوية لابد أن نعرفهم ونعرف أماكنهم لأنهم خطر على الدولة؟ إذ يريدون أن يشقوا عصا المسلمين، وهم يوالون ويؤيدون من تزعّم هذا العصيان وخرج على إمام زمانه وشقّ عصا المسلمين...

فيقاطعه جابر بغضب دفين كاد أن ينفجر...

- مَن تقصد؟

الجلاد - وإن كنا نجلّه ونقرّ بفضله لكننا لا نرضى أن يدمّر الدولة الإسلامية، وهو الحسين بن علي...

ولم يحتمل جابر هذا الهراء.

فتدوّي صرخته في أرجاء الغرف لتهزّ جدرانها. إنه يصرخ ويقول:

- مَن أَنت حتى تتكلم عن الإمام الحسين عليه السلام؟

فيصمت الجلّاد بعد أن فاجأه جابر بصرخته المدويّة.

ويتابع جابر كلامه بصوت عال وقد انتصب واقفاً على قدميه:

- هل تعرف مَن هو إمامي وإمامك الحسين بن علي عليه السلام.

إنه سيد شباب أهل الجنة.

إنه ريحانة رسول الله(ص).

إنه مصباح الهدى وسفينة النجاة.

إنه من كان يصعد على كتف رسول الله(ص) وهو ساجد فيطيل الرسول سجوده لأجله.

وكان النبي يهرول نازلاً من منبره إذا شاهد الحسين يعثر في المسجد.

إنه من رسول الله ورسول الله منه، كما قال النبي(ص): حسين مني وأنا من حسين، ومن أحبّه فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغض الله عزّ وجل.

ويهدِّد جابر بعلو صوته وكأنه يخطب في المسجد ويسرد ما استطاع عن فضل الحسين ومكانته حتى ينقطع نفسه والجلّاد مبهور لكلامه ثم يجلس جابر على ركبتيه باكياً وهو يقول:

ـ ما لكم والحسين بن علي؟ أليس الحسين ابن بنت نبيكم الذي تشهدون له بالنبوة؟ ألم يأمركم بمودّة قرباه في كتاب الله؟

ويجهش بالبكاء والنحيب، ويقول:

ـ روحي وأرواح العالمين لك الفداء يا ريحانة رسول الله! ليتني أفديك بنفسي وعيالي وكل عزيز وتنجو أنت من هؤلاء الفجرة الذين يجهلون ويتجاهلون فضلك عند الله ورسوله.

وأدرك الجلاد أن الجهد مع هذا النوع من الناس غير مجدٍ ولن

يحصل منه على أية معلومات، وبدل أن يذعن للحق ويتأثر بكلام جابر والذي يُصدّقه يعرف أحقيته، أخذته العزة بالإثم فقام من مكانه وتوجه إلى سوط كان على الجدار تناوله وتوجّه إلى جابر ولم يتركه إلا وهو أشبه بكومة من الدم واللحم المقطّع إذ استمر في ضربه حتى فقدَ وعيه من شدة الألم وكانت إغماءة جابر نعمة مَنَّ الله بها عليه تخفيفاً عليه.

ويخرج الجلّاد يملأه الغيض من فشل مكره أمام شجاعة جابر وصبره وإيمانه، ويأمر أعوانه بأن يأخذوه إلى الغرفة المخصصة للتعذيب.

وبعد ساعات يعلو صراخه وعويله تحت أنواع وفنون التعذيب، ويستمر صراخه حتى الصباح، لكن يبدو أن الأمل معدوم مع جابر فيؤمر به إلى غرفة أخرى وبه رمق من الحياة وقد اختلط جلده بلحمه إثر الجروح والحروق.

وهناك في الغرف مجموعة أخرى من المؤمنين الموالين ممن هم على شاكلته، يلقى الى جانبهم كالجثة، لكنه يتمتم. وعندما يقترب منه أحد الموجودين في الغرف ليسمع ما يقول فإذا به يردد هذه العبارة: «اللهم انصر حسيناً اللهم انصر حسيناً».

فيجيبه: ـ اللهم آمين. وتنحدر دموعهما.

الفصل السابع

الامتحان

بعد يومين وقد استعاد جزءاً يسيراً من عافيته وقدرته على المشي والكلام، يأتي شخص يطلب جابر باسمه، ويعود به إلى غرفة التعذيب، ويخبره بالصراحة الكاملة:

ـ إسمع يا جابر، اليوم عندي أمر أن أجعلك أمام خيارين؛ فإما التعاون الكامل، أو القتل فوراً.

وهنا تخطر فكرة ذكية لدى البطل جابر، فيقول للجلّاد وبصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إسمع يا هذا.

الجلاّد ـ ماذا تريد؟

جابر ـ في الحالتين اللتين ذكرتهما، التعاون أو الموت، ماذا تستفيد أنت؟

الجلاد ـ هذا ليس من شأنك، وأجبني في الحال أيهما تختار أيها الشقي؟

جابر ـ إني أرغب بالتعاون ولكن التعاون الذي يفيدك أنت، لا الذي يفيد غيرك ولا تستفيد أنت ولا ينالك غير غضب الله.

الجلاد ـ ماذا تقصد؟

جابر ـ أقصد أني أريد أن أعطيك مالاً يعدل أجر سنين تتقاضاه لقاء ترك تعذيبك الابرياء وقد تستغني عن عملك الذميم هذا الذي لن تجني منه سوى جهنم.

الجلاد ـ ماذا تقول يا مجنون؟

جابر ـ لستُ مجنوناً ولكن أريد أن أربح أنا بنجاتي وتربح أنت مالاً وفيراً لقاء ذلك.

وهنا تبدأ الفكرة تؤتي ثمارها؛ إذ بدأتْ الفكرة تدور في ذهن الجلاد، فبدأ يصغي لجابر محاولاً أن يفهم ما يعني، فالعرض مغرٍ ولا خسارة في أن يستمع لما يريد أن يقول.

فيدنو منه ويسأله بصوت خافت بعد أن ألقى نظرة الى النافذة الصغيرة الوحيدة في الغرفة ويسأله:

ـ كيف؟

ويتنفس جابر الصعداء بعد أن وجد لخطته بريق أمل في الخلاص، فيحمد الله في نفسه ويقترب من أذن الجلاد، ويهمس.

ـ إسمعني جيداً وافهم بدقّة ما أقوله لك.

أولاً: سوف تتظاهر أنت بتعذيبي، وأتظاهر أنا بالصراخ والعويل بأقصى ما أستطيع، ثم أتظاهر أنا بالموت وألقي بنفسي على الأرض كالجثة الهامدة، ثم تأمر أعوانك بأن يجرّوني ويلقوني في غرفة الأموات، والتي هي مملوءة ـ كما علمت مؤخراً ـ وسوف أستلقي هناك بين الجثث دون أدنى حركة حتى موعد إخراج الجثث لدفنها آخر الليل، وهناك عند الدفن تعينني أن أتسلل تحت ستار الليل إلى مخبأ، وأذهب بعد انتهائكم وخروجكم من المنطقة.

الجلاد ـ وكيف ستعطيني حقي وما يضمن لي صدقك؟

جابر ـ يضمنه خوفي أن تخبر عني أو أن تقتلني أو ترسل إليَّ من يقتلني. وأما المال فسوف أُسلِّمه لك بعد خروجي بيومين عند جبل أحد عند قبر سيد الشهداء حمزة عليه السلام.

يطرق الجلّاد برأسه فترة ثم يرفع رأسه وينظر الى جابر بحقد، ويقول له:

ـ أيها الماكر اللعين سوف... سوف أقبل هذه المجازفة رغم أني أعتقد أنك تستحق الموت... اتفقنا.

وهنا تفتحت أسارير جابر وكأنه ينظر إلى أمه وهي تضمّه باكيةً من شدة الفرح.

الجلاد ـ والآن هيا، إصرخ بأعلى صوتك.

ويهوى عليه بالسياط وكأنه يعذِّبه حقيقة، لكن السياط تضرب الأرض، ويصرخ جابر بكامل طاقته، وهكذا فترة من الزمن يسقط بعدها جابر على الأرض، وتجري الخطة كما رسمها البطل الفطن جابر ويُلقى في غرفة الجثث ويغلقَ الباب ، فتدب الظلمة في الغرفة ويدبّ الخوف في أوصاله. إنه ملقى على تلّ من الأموات فتعتريه الرهبة وهو يتحسس هذه الجثث لإخوانه في الدين والعقيدة فتتلاطم أمواج الحزن والأسى العميق في صدره، فيخاطب نفسه : لماذا قتلوا هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم؟ أي جرمٍ اقترفوه؟ عشرة جثث أو يزيدون مجزرين كالأضاحي لا جرم لهم سوى عقيدتهم الناصعة.

في أي زمن نعيش؟ هل رجعنا الى الجاهلية من جديد؟

أين الإسلام الذي جاء به رسول الله(ص) وقاتل من أجله هو وأهل بيته وخلّص أصحابه حتى أظهره الله؟ أين أصبحت دولة

الإسلام العظيمة ؟ وبيد مَن أصبحت وأين ستصل وكيف ستكون ؟

وتمرّ الساعات ثقالاً كأنها شهور ودهور وهو ممدّد بين جثث إخوانه من المؤمنين ويحاول أن يغمض عينيه حتى لا يرى هذا المنظر المذهل الرهيب المفزع المحزن. لكنه يفتح عينه مرة أخرى فينظر ويبكي لهم ولذويهم وأحبته.

وفجأة يرى ما لا يستطيع معه أن يحافظ على سكونه فينهض من مكانه فزعاً رغم ما في ذلك من خطورة فقد يفشل كل شيء وتذهب خطته أدراج الرياح.

نهض من مكانه مذعوراً وتوجه الى إحدى الجثث. وهو ينظر ملياً إلى وجه هذا الميت كاد أن يُشل أو تُزهق روحه، وبهول أشبه بالجنون يخاطب الجثة:

ـ مَن؟ مَن أنت ؟

إنه يعرفه جيداً لكنه لا يريد أن يصدق ما يرى.

نعم إنه هو هو، فيحتضنه ويضمّه إلى صدره ويبكي خافتاً وبحرقة لم يشعر بها أبداً في حياته. إنه خوه عبد الله شقيقه وسنده وحبيبه.

ويبكي كالثكلى ويضمه إلى صدره بقوة، والفاجعة تقطّع قلبه ويبكي وحيداً لا يجد من يسلّيه أو يصبّره ولا يستطيع أن يبكي

بصوته الطبيعي فيلهث ويبكي بصمت أسود والجرح عميق لا حدود له.

جابر ـ مَن قتلك يا أخي؟ مَن قتلك يا نور عيني؟ مَن قَتلك يا حبيبي! ويا سندي؟

ويبكي ملياً حتى ينقطع نفسه:

ـ قتل الله مَن قتلك وعذّبهم عذاباً أليماً. ما حال أمي الآن وولديها عنها في طي العدم، ماذا لو علمت بالخبر؟!

ويدور الحديث في نفسه الممزقة:

ـ هل ستعيش بعد ذلك؟ كيف ستحتمل الأم الحنون هذا الهول العظيم! أنا الأخ أشعر أن هول الدنيا وحزنها وأساها صار في قلبي ولن يخرج منه مدى حياتي، فكيف أنتِ يا أمي؟

ويبكي، ويبكي لمصاب أخيه في نفسه ولمصاب أمه المسكينة.

هكذا كالمجنون تتخاطفه الأحزان ولا يفتأ أخوه على صدره يضمّه بكل قوته الى أن يسمع صوت أقدام جهة الباب فيضطر إلى ترك الجثة الغالية ويحبس مشاعره ويتظاهر بالموت ويلقي بجسده على الأرض إلى جانب الجثث.

وتسير الخطة كما رُسمت وتُنقل الجثث إلى مكان الدفن

ويُحمل مع الجثث ويُلقى به الى الأرض فيخرّ دون حراك ويقتله التردد هل يقوم ويسلّ سيفاً ويثأر لأخيه؟ أم يتجرع الغصة ويبقي على نفسه لأمه وأهله؟ ويحكم عقله بضروة الصبر وترك المجازفة. ويتسلل كما اتفق مع الجلّاد في جنح الليل تاركاً أخاه يدفن في تلك المقبرة الجماعية. ويتّجه مسرعاً مترقباً خائفاً جهة بيته ماراً جهة المسجد النبوي الشريف فيقف من بعيد باحترام وخشوع ويلقي التحية:

ـ السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خير خلق الله.

ثم يخاطب النبي:

ـ يا رسول الله إني أشكو إلى الله وإليك ما يفعله هؤلاء الظالمون بالمسلمين، يا نبي الرحمة ماذا أقول لأمي؟ كيف أخبرها؟ أعلم يا رسول الله أن مصابنا يتضاءَل ويختفي أمام مصائب أهل بيتك، لكني لا أعرف ما أقول لأمي وكيف سأخبرها بالفاجعة؟ هل أتركها تفرح بقدومي ثم أفجعها بأخي؟

ثم يرفع يديه إلى السماء:

ـ اللهم أعنّي على مصابي بأخي، وكذلك أمي المسكينة وزوجته وأولاده، أعنّا اللهم على هذا البلاء وألهمني الحكمة في التصرّف وكيف سأخبرهم ومتى.

ثم يمسح دموعه ويتجه إلى أحد جيرانه ويرسله إلى منزل أهله يلتمس الأمان فيرجع بسرعة ويخبره أن الطريق آمن ويأمره بأن يسرع لأن أمه في حال لا يُسَرّ.

فيهرع الى بيته وما إن يدخل الدار حتى يجد أمه مُمدّدة في صحن الدار فينكبّ على يدها يقبّلها ويحتضنها باكياً ودموعها تتقاطر على خديها وهي تتمتم بالحمد والشكر لله.

التفّ حوله أخته والأطفال وزوجته وهم يبكون ويحمدون الله.

وعندما هدأ الموقف التفت يمنة ويسرة متصنعاً وقال: أين عبد الله؟؟ وكاد أن ينفجر بالبكاء لكنه حبس مشاعره بقوةٍ.

ويعيد السؤال فتجيبه أمه وقد تجدّد بكائها.

ـ لقد أخذوه بعدك بأيام ولا نعرف عنه شيئاً كما لم نكن نعرف عنك.

جابر ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم نجّه وفرج عنه. (وهو يقصد النجاة في الآخرة).

الأم ـ إن الله موجود ولن ينساه.

ولم يرد جابر أن يفسد أمل أمه، فترك خبر عبد الله إلى وقت مناسب آخر، ريثما يجد الفرصة المناسبة

الفصل الثامن

القصاص المشروع

بعد يومين يذهب جابر حيث اتفق مع الجلّاد ويأخذ الحيطة والحذر فيأخذ ثلاثة من رفاقه فيحفرون ثلاثة حفر، في كل حفرة اختبأ كل واحد منهم ومعه سلاحه وموقع الحفر خلف موقع وقوف عدوّه. وفي الموعد المحدد في غلس الليل خرج جابر بعد أن سمع صوت الجلّاد الذي حضر مع اثنين من أعوانه لحمايته.

الجلّاد ـ أين أنت يا جابر؟

جابر ـ ها أنا ذا.

الجلاد ـ هل أحضرت المبلغ كما اتفقنا؟

جابر ـ نعم هاك خذه، وألقى بالصُرة عند قدميه.

وعندما انحنى الجلّاد لأخذ الصُرة قال له جابر، وعلامات الغضب واضحة عليه:

- لِمَ قَتلت أخي؟

فرفع رأسه وهو منحن وقد التقط كيس النقود من الأرض:

- ومَن يكون أخوك؟

- ذاك الذي كان يرتدي الثوب الأزرق واسمه عبد الله، لقد شاهدته مضرجاً بدمه مع القتلى.

فارتبك الجلاد وُقال دون شعور:

- وما يدريني أنه أخوك؟

جابر - إذن فأنت قاتله وليس سواك؟

الجلاد - لقد كان وقحاً عنيداً؟

جابر - بل كان مؤمناً شجاعاً لا يخشى غير خالقه، قضى صابراً محتسباً على يديك يا عدو الله.

هنا أحسّ الجلاد بالخوف، فأسرع إلى الغدر الذي كان ينويه فصاح بأزلامه: اقضوا عليه بسرعة.

فهجموا عليه، فاستل جابر سيفه وصاح: «الله اكبر».

فخرج أصحابه من الحفر من خلف الجلاد وأعوانه الذين انحصروا بين جابر من جهة وبين رفاقه من جهة أخرى، فأطبقوا

عليهم.

ودارت بينهم معركة حامية لم تطل حتى ثأر جابر لأخيه عبد الله وغيره من المؤمنين؛ إذ أردى الجلاد وأعوانه صرعى. ثم جلس جابر إلى جانب الجثث متكئاً على سيفه يتنفس الصعداء بعد أن أطفأ شيئاً من النار المستعرة في صدره، ثم سجد لله شكراً، ثم شكر رفاقه وجزّاهم خيراً، ثم تفرقوا كل إلى مقصده.

ورجع جابر إلى بيته. وبعد أيام، غيَّر مسكنه هو وعائلته إلى مكان مجهول تحسّباً لأي مخاطر تستجد.

الفصل التاسع

مواصلة السير إلى كربلاء

ويسير موكب الإمام الحسين(ع) بالنساء والأطفال والخُلّص من أهل بيته وأصحابه الذين صمدوا معه. ولم تؤثِّر فيهم الأخبار الحزينة التي وصلتهم حول استشهاد قيس بن المسهّر الصيداوي ومسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر

وبالرغم من أن الإمام الحسين أجاز لهم الرحيل؛ إذ قال لهم: «أما بعد فقد خذلتنا شيعتنا، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام».

إلا أن الأصحاب شدّوا العزم أكثر وعزموا على الشهادة، وعلى رأسهم أخوه العباس«ع» الذي ادّخره أمير المؤمنين لهذه الفترة

العصيبة من التاريخ، وصمموا أن يكتبوا على جبين التاريخ أن العزة والكرامة الأبدية للإمام الحسين(ع) ولمن سار معه.

وعندما يصل الركب المبارك للإمام الحسين على مشارف العراق يلتقي الإمام بالحر وهو على ألف فارس يجوبون الصحراء بحثاً عن الحسين(ع).

وهنا يأمر الإمام الحسين عليه السلام أصحابه أن يسقوا جيش الحر ويسقوا حتى خيولهم.

وبعد ذلك قام الإمام الحسين(ع) لصلاة الظهر ويأتم الحر وجيشه بالإمام الحسين وبعد الصلاة.

يخطب الإمام الحسين بالجيش قائلاً:

- «أيّها الناس، إنكم إن تتبعوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم الآن على غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم».

فانبرى الحر:

- ما هذه الكتب التي تذكرها؟

فأمر الإمام عقبة بن سمعان بإحضارها. فأخرج خرجين

مملوئين صحفاً فنشرها بين يدي الحر فتأمّلها وقال:

«لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك».

وعندما همّ الإمام بالحركة، اعترضه الحرّ وقال للإمام:

ـ أُمِرت أن لا أفارقك إذا لقيتك حتى أُقدمك الكوفة على ابن زياد.

فصاح الإمام في وجهه:

ـ «الموت أدنى إليك من ذلك».

وعندما أصرّ الحر على منع الإمام من الحركة لمقصده صاح به:

ـ ثكلتك أمّك! ما تريد منا؟

وأطرق الحر برأسه إلى الأرض، ثم خاطب الإمام بأدب:

ـ «أما لو غيرك من العرب يقولها لي ما تركت ذكر أمّه بالثكل كائناً من كان، ولكن والله مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يُقدر عليه...».

فأجابه الإمام:

ـ ما تريد منا؟

ـ أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد.

فصاح الإمام.

ـ والله لا أتبعك.

وتدور مشادّة كلامية ثم تنتهي ويسير ركب الإمام ويمضي الامام عليه السلام في طريق ثالث حتى وصل إلى منطقة، فسأل عنها، فإذا هي المكان المعهود والمذكور عند رسول الله وأخبر به جبرئيل أنه كربلاء. حيث سيكون كل الكرب وكل البلاء فيها.

ويقيم موكب العترة الطاهرة على صعيد كربلاء يوم الخميس الثاني من المحرم سنة ٦١ هـ.

ويرفع الإمام يده إلى السماء:

«اللهم إنا عترة نبيك محمد(ص) قد أخرجنا وطُردنا وأزعجنا من حرم جدنا، وتقدّمت بنو أميّة علينا فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين».

ويخطب الحسين(ع) فى أصحابه فيقول:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم فإذا محصّوا بالبلاء قلّ الديانون».

وفي خطبه له:

ـ «أما بعد فقد نزل بنا ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به

وإلى الباطل لا يُتناهى عنه. ليرغب المؤمن في لقاء الله... فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً».

وبعد هذا الغيض الذي كشف به الإمام عن كثير من الأمور، هبّ أصحابه واحداً بعد آخر وهم خلاصة الخلاصة. فقال زهير ابن القين:

ـ «سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها».

وقال برير:

ـ «يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك وتقطع فيك أعضاؤنا ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة».

وقال نافع:

ـ «أنت تعلم أن جدك رسول الله(ص) لم يقدر أن يشرب الناس محبته، ولا أن يرجعوا إلى أمره ما أحب، وقد كان منهم منافقون يعدونه بالنصر ويضمرون له الغدر، يلقونه بأحلى من العسل ويخلفونه بأمر من الحنظل حتى قبضه الله إليه، وأن أباك علياً كان في مثل ذلك، فقوم قد أجمعوا على نصره وقاتلوا معه الناكثين والقاسطين والمارقين حتى أتاه أجله فمضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكث

عهده وخلع بيعته فلن يضرّ إلا نفسه والله مغنٍ عنه، فسربنا راشداً معافاً، مشرّقاً شئت أو مغرّباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نياتنا وبصائرنا نوالي مَن والاك ونعادي من عاداك».

وتكلم أكثر أصحاب الإمام بمثل هذا الكلام.

وفي الجانب الآخر تتجمع الآلاف المؤلّفة من ألأم الخلق يرأسهم ابن سعد، الذي حاول بدوره أن يتخلص من قتل الحسين بلباقة دون أن يخسر إمرة الجيش، بحيث يصل إلى حلول وسطى، فجاءه الخبر من ابن مرجانة (ابن زياد) برسالة يحملها الشمر يأمره بقتال الحسين إن لم ينزل على أمرنا أو التخلي عن الجيش وتسليمه الى الشمر بن ذي الجوشن. فآثر مرضاة المخلوق بسخط الخالق.

وفي الليل حاول الإمام الحسين هدايته فهو إمام الرحمة بل هو الرحمة، فأراد أن يخلّصه من هذا الإثم، فأرسل إليه، واجتمع معه، وكان مع الإمام أخوه العباس الذي كان بمثابه وزير له.

فقال الحسين لابن سعد:

ـ «يا ابن سعد أتقاتلني؟ أما تتقي الله الذي إليه معادك فإني ابن مَن قد علمت، ألا تكون معي وتدع هؤلاء فإنه أقرب إلى الله

تعالى».

وأراد الحسين(ع) أن يقيم الحجة عليه لكنه ليس أهلاً للهداية، فتحدث بمنطق أهل الدنيا وألقى بأعذار لا تقنع حتى نفسه. لكن يريد أن يبيع الآخرة فقال.

ـ أخاف أن تُهدم داري.

الحسين ـ أنا أبنيها.

ابن سعد ـ أخاف أن تهدم ضيعتي.

الحسين ـ أنا أخلف عليك خيراً منها في الحجاز.

ابن سعد ـ إن لي في الكوفة عيالاً وأخاف عليهم من ابن زياد القتل.

و هنا علم الإمام أن لا فائدة منه وأنه عازم على طاعة الشيطان في قتاله، وأنه سينفِّذ رسالة ابن مرجانة التي جاء فيها «فإن قتلت حسيناً فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع».

وعندما رأى الحسين منه ذلك قال له:

ـ مالك؟ ذبحك الله على فراشك عاجلاً، ولا غفر لك يوم حشرك. فوالله إني لأرجو أن لا تأكل من بر العراق إلايسيراً».

وولى ابن سعد وهو يقول ساخراً: «إن في الشعير كفاية».

وهكذا ألقى الحسين الحجة على الجميع.

وفي معترك الموت يظن الطغاة أنهم قادرون على القلوب؛ فيرسل الشمر اللعين أماناً من ابن زياد لقمر بني هاشم يطمعه بالأمان هو وإخوته الثلاثة. فجاء يشتد حتى وقف أمامهم وهتف منادياً:

ـ أين بنو أختنا العباس وإخوته؟

وهبّ إليه الفتية كالأسود فقالوا له:

ـ ما تريد يابن ذي الجوشن؟

الشمر ـ لكم الأمان.

ويأتيه جواب مَن تربّوا في حجر أم البنين الطاهرة:

ـ لعنك الله ولعن أمانك، أتؤمننا وابن بنت رسول الله لا أمان له؟

ويعلم الله ما جاش في صدر العباس(ع) في تلك اللحظات العصيبة.

وتطوي الساعات والليالي سراعاً للاقتراب من اليوم المحتوم.

ويُقطع الماء في السابع من المحرم عن معسكر الحسين.

واشتد العطش بالأطفال فندب الإمام(ع) ابن والده العباس(ع) فصحب هذا البطل العظيم معه ٣٠ فارساً وعشرين راجلاً

وحملوامعهم عشرين قربة واقتحموا جميعاً نهر الفرات تقدمهم نافع بن هلال.

فاستقبله المسؤول عن حراسة الفرات عمرو بن الحجاج الزبيدي فقال له:

ـ ما جاء بك؟

نافع ـ جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه.

عمرو ـ إشرب هنيئاً.

نافع ـ أفأشرب والحسين عطشان ومَن ترى من أصحابه؟

عمرو ـ لا سبيل إلى سقي هؤلاء.

فاقتحم العباس ونافع الماء والتحموا معهم. ودارت المعركة ولم يخرج العباس إلا معه الماء.

وروى العباس عطاشى أهل البيت، ولُقب ذلك اليوم بالسقّاء.

ولكن ما لبث الماء أن نفد بعد فترة وجيزة وعادوا إلى العطش.

و في ليلة العاشر من المحرم كانوا في أشدّ العطش وقد أطبق عليهم ليل الحزن والأسى والبلاء.

كانت زينب تعلم ما ينتظرها بالغد فهي العالمة وهي ابنة علي(ع). تنتظرها الويلات العظيمة والأحزان الجسيمة.

وكان سواد تلك الليلة كله حزن وكمد على ما سيجري.

ويجمع الإمام الحسين(ع) أصحابه وأهل بيته فيقول

ـ «...إني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم مني ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً خيراً، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله فإن القوم إنما يطلبونني ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري».

ولم يكد ينهي الإمام.

كلامه حتى هبّت الصفوة الطيبة وأعينهم تفيض من الدمع يحملون قلوبهم على أيديهم يقدمونها قرابين في طريق الإمام.

فهذا سعيد بن عبد الله يقول:

ـ «أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أذرى، يُفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا».

وقال زهير بن القين:

ـ «والله لوددتُ أني قُتلت ثم نُشرت ثم قتلت حتى أُقتل كذا ألف مرة وأن الله عزّ وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن

أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك».

لقد أشرقت نفوسهم ترحيباً بالموت واستقلوا ذلك.

وهذا ما يفعل الإيمان بصاحبه إذا ذاق طعمه.

وهكذا اختبرهم الإمام فوجدهم من أصدق وأوفى مَن عرف.

وأقبل الإمام إلى خيمته فجعل يعالج سيفه ويصلحه وهو يقول ناعياً نفسه:

يا دهر أُفٍ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب وطالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حيّ سالك سبيل

وكان بالخيمة زين العابدين فخنقته العبرة ولزم السكوت.

وأما العقيلة زينب فقد فاضت عيناها بالدموع وقالت:

ـ «وا ثكلاه! واحزناه! ليت الموت أعدمني الحياة، يا حسيناه، يا سيداه، يا بقية أهل بيتاه، أستسلمت ويئست من الحياة، اليوم مات جدي رسول الله وأمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن. يابقية الماضين وثمال الباقين».

فيبادرها الحسين(ع):

ـ يا أخية لا يذهبنَّ بحلمك الشيطان.

ولم تملك صبرها بعد يقينها بقتله فشقت جيبها ولطمت وجهها وخرت على الأرض فاقدة لوعيها.

بينما اشتغل جيش الإمام الحسين بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن فكان لهم دوي كدويّ النحل من شدة العبادة.

إلى أن أشرقت شمس العاشر من المحرم فأمر الإمام براحلته فركبها واتجه نحو معسكر ابن سعد فخطب فيهم قائلاً:

ـ «أيها الناس! اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم؛ فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأعطيتموني النصف من انفسكم كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليَّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون. إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين».

ونقل الأثير كلماته إلى السيدات من عقائل النبوة وحرائر الوحي فتصارخن بالبكاء، وارتفعت أصواتهن، فبعث إليهن أخاه العباس وابنه علياً، وقال لهما: سكّتاهن فلعمري ليكثر بكاؤهن.

ولما سكتن استرسل في خطابه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص)، وعلى الملائكة والأنبياء (ع)، وقال في ذلك ما

لا يحصى ذكره ولم يسمع لا قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه وقال:

ـ «أيها الناس: إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال. فالمغرور من غرته، والشقي من فتنته، فلا تغرنّكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، فنعم الرب ربنا، وبئس العبيد أنتم. أقررتم بالطاعة، وآمنتم بالرسول محمد(ص) ثم إنكم زحفتم إلى ذريته وعترته تريدون قتلهم. لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتباً لكم ولما تريدون، إنا لله وإنا اليه راجعون. هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعداً للقوم الظالمين».

لقد وعظمهم بهذه الكلمات التي تمثّل هدي النبوة، ومحنة الأنبياء في أممهم، فحذّرهم من فتنة الدنيا وغرورها، ودلّل على عواقبها الخاسرة وأهاب بهم من الإقدام على قتل عترة نبيهم، فإنهم بذلك يخرجون من الإسلام إلى الكفر، ويستوجبون عذاب الله الخالد، وسخطه الدائم، ثم استرسل عليه السلام في خطابه فقال:

- «أيها الناس! انسبوني من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه؟ وأول المؤمنين بالله؟ والمصدق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ أولم يبلغكم قول رسول الله(ص) لي ولأخي: «هذان سيدا شباب أهل الجنة»؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، فوالله ما تعمدتُ الكذب منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إذا سألتموه أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟»

وانبرى إليه الرجس الخبيث شمر بن ذي الجوشن وهو ممن غرق في الأثم فقال له:

- «هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول؟».

وما كان مثل ذلك الضمير المتحجر الذي ران عليه الباطل أن يعي منطق الإمام أو يفهم مقالته.

وتصدى لجوابه حبيب بن مظاهر فقال له:

- «والله اني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول. قد طبع الله على قلبك».

واستمر الإمام في خطابه فقال:

- «فان كنتم في شك من هذا القول، أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فو الله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم. ويحكم أتطلبونني بقتيل منكم قتلته؟ أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص جراحة؟».

وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وغدوا حيارى لا يملكون جواباً لردّه، فهم لا يشكون أنه ابن بنت رسول الله(ص) وريحانته، وأنهم لا يطلبونه بقتيل قتله ولا بمال استهلكه منهم.

ثم نادى الإمام قادة الجيش الذين دعوه برسائلهم للقدوم إلى الكوفة، فقال:

- «يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحرث، ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وإنما تقدم على جند لك مجنّدة؟».

ولم تخجل تلك النفوس من خيانة العهد، وحنث الأيمان، فأجابوه مجمعين على الكذب:

- «لم نفعل»

واستغرب الإمام منهم ذلك فقال لهم:

ـ «سبحان الله!! بلى والله لقد فعلتم».

وأعرض الإمام عنهم ووجّه خطابه إلى جميع قطعات الجيش فقال لهم:

ـ «أيها الناس: اذا كرهتموني، فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض».

فانبرى إليه قيس بن الأشعث وهو ممن عُرف بالغدر والنفاق، وقد خلع كل شرف وحياء، وحسْبه أنه من أسرة لم تنجب شريفاً قط فقال له:

ـ «أولا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل إليك منهم مكروه».

فأجابه الإمام:

ـ «أنت أخو أخيك؟ أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد. عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

وأبت رحمة الإمام وشفقته على أعدائه إلا أن يقوم بإسداء النصيحة لهم ثانياً، حتى يستبين لهم الحق، ولا يدعي أحد منهم

أنه على غير بينة من أمره. فانطلق نحوهم، وقد نشر كتاب الله العظيم، واعتم بعمامة جده رسول الله(ص) ولبس لامته، وكان على هيبة تعنو لها الجباه، وتغض عنها الأبصار. فقال لهم:

ـ «تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً. أحين استصر ختمونا والهين فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، فهلاّ لكم الويلات! تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم عليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها. فسحقاً لكم يا عبيد الأمَة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصبة الإثم، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن، ويحكم أهؤلاء تعضدون!! وعنا تتخاذلون! أجل والله غدر فيكم وشجت عليه أصولكم، وتآزرت فروعكم، فكنتم أخبث ثمرة شجىً للناظر وأكلة للغاصب.

ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين؛ بين السلة والذلة. وهيهات منا الذلة، يأبى لنا الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد

وخذلان الناصر.

ثم أنشد أبيات فروة بن مسيك المرادي:

فـــإن نـــهزم فـــهزّامـــون قـــدما

وإن نـــــهزم فـــــغير مـــــهزَّمينا

ومـــــا إن طـــبنا جـــبن ولكـــن

مـــــــنايانا ودولة آخـــــرينا

فـــقل للشـــامتين بـــنا أفـــيقوا

ســيلقى الشــامتون كــما لقــينا

إذا مـا المـوت رفـع عـن أنـاس

بكـــــلكله أنـــــاخ بآخـــــرينا

أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلق بكم قلق المحور. عهد عهده إليَّ أبي عن جدي رسول الله(ص). فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تُنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم».

ورفع يديه بالدعاء عليهم قائلاً:

ـ «اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني

يوسف وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة؛ فإنهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلت وإليك المصير».

وينتهي الكلام، وينتقل دور الكلمة للسيف والرمح والدماء، ويبدأ اللعين ابن سعد فيرمي بسهمٍ جهة معسكر الإمام، فيؤذن الإمام(ع) بقتال القوم إذ قال لقومه:

ـ «قوموا يا كرام فهذه رُسل القوم إليكم».

وتبدأ المعركة بين معسكر الإمام الذي حوى ٧٢ مقاتلاً ومعسكرا الأعداء الذي يحوي عشرات الآلاف في تباين لم يشهد له التاريخ مثيلاً

وتدور رحى المعركة إذ يقدّم أصحاب الحسين صوراً من الفداء لا يمكن أن توصف بالقلم مهما كان بليغاً، وتروى أرض كربلاء بتلك الدماء الطاهرة من الصفوة الطاهرة من أصحاب الإمام وأهل بيته واحداً بعد آخر.

وبعد فترة من القتال، لم يبق مع الإمام سوى إخوته من أبيه أبناء الطاهرة الزكية أم البنين (العباس واخوته)، يلتفت العباس حامل راية الحسين وفخر هاشم وعدنان، بعد أن رأى كثرة القتلى من أهل بيته، يلتفت إلى إخوته من أبيه وأمه ويقول لهم:

ـ «تقدموا يا بني أمي حتى أراكم نصحتم لله ورسوله.

وقال لأخيه عبد الله:

- «تقدم يا أخي حتى أراك قتيلاً وأحتسبك».

فيتقدم، فيقاتل ويستشهد، ثم يقدِّم الثاني فالثالث.

يا ألله! يا لقلبك يا أبا الفضل! أي حب في قلبك لإمامك وأخيك الحسين(ع) زَرَعَتْهُ أمك الطاهرة حتى ترى إخوتك يُجزرون كالأضاحي وأنتَ تنظر إليهم ثم لا يزيدك ذلك إلا ثباتاً وعزماً.

ولم يبق في المعسكر غير العباس(ع) فيطلب من إمامه الحسين(ع) الإذن بالقتال، فقد ضاق صدره مما رأى. فقال له الإمام(ع): «أنت صاحب لوائي».

وصاحب اللواء هنا تعني الأهمية القصوى؛ إذ إن جانباً كبيراً من إدارة المعسكر والمعركة واستراتيجيتها عنده. وسقوط الراية يعنى انتهاء المعسكر وانكساره.

ومن جانب آخر فإن ذهاب العباس(ع) واستشهاده يعني بقاء الحسين وحيداً. وهذا الأمر وان كان مروّعاً للقلوب إلا أنه أمر لابد مه؛ لذا يجيبه الإمام الحسين بكل لوعة وحرقة:

- أنت صاحب لوائي...

إن كان ولابد فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

فأطفال الحسين وسائر الأطفال يتلوّون من العطش منذ ثلاث أيام في رمضاء كربلاء وذلك الهجير؛ إذ مُنع الماء عنهم. فالكبار كانوا يشكون من لوعه العطش فكيف بالصغار؟ فكان منظر الصغار وهم يتلظون عطشاً يسعر في قلب الإمام الحسين لهيباً لا يعلمه إلا الله.

ويمتثل العباس لأمر الحسين(ع) ويقتحم المشرعة بشجاعة عَلَوية هاشمية ويصل بسيفه إلى الماء ويغترف غرفه من الماء بيده الشريفة ليشرب، لكن يتذكر عطش أخيه الحسين فيرمي بالماء ويملأ القربة ويمضى وهو يرتجز:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنتِ أن تكوني
هذا حسين وارد المنون وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعال ديني

فهنيئاً لكِ هذا المجد التليد يا أُم البنين.

أي عظيم صنعتِ وأعدت لهذا اليوم العظيم؟

وما يضرّه لو ارتشف رشفة من الماء تقوّيه على القتال وقد أضرمت نار العطش فؤاده أياماً؟

لكنه أبى إلا أن يكون أبا الفضل كله.

فمع أننا لا نعرف من فضائله إلا اليسير، ولكن هـذا اليسـير يشير إلى الفضائل التي جمعها بين جنباته. فهو ابن سيد الوصيين وابن فاطمة (أم البنين) وقد أعدّه والداه لهذا اليوم العصيب.

هنيئاً يا أم البنين **هذا المجد والفضل السرمدي .**

ويمضي العباس يقتحم السيوف وبيده قربة الماء، فتكاثر عليه الأعداء، فأخذ يضرب بهم بسيفه وهو يرتجز:

لا أرهب الموت إذا الموت رقا حتى أوارى في المصاليت لقا
إني أنا العـباس أغـدوا بـالسقا ولا أهاب الموت يوم الملتقى

فاحتوشه الأوباش من كل جـانب وقـرّروا أن يـقتلوه غـيلة وخيانة وغدراً على طريقة الجبناء، فكمن له يزيد بن الرقاد الجهني وعاونه حكيم بن الطفيل السنبسي فضربه عـلى يـمينه فـقطعها، فأخذ السيف بشماله وجعل يضرب فيها ويقول بصوت اخـترق التأريخ وهو ماضٍ حتى آخر يوم في هذه الدنيا:

والله إن قطعتموا يـميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليـقين نجل النبي الطاهر الأمين

وبعد ذلك كمن له حكيم بن الطفيل من وراء نخله فـضربه على شماله فبترها...

وعند ذلك... عند ذلك أمن الأعداء سطوته، وتكاثروا عليه

وأتته السهام كالمطر فأصاب القربة سهم وأُريق ماؤها، ففقد العباس روحه لما فقد الماء وهو ينظر إليه دون حيلة ويتذكر الأطفال.

ثم سهم أصاب صدره وسهم أصاب عينه. وحمل عليه رجل بعمود من حديد فضربه على رأسه المقدس... فهوىٰ صريعاً وصاح بصوت عال:

ـ عليك مني السلام يا أبا عبد الله...

فأتاه الحسين عليه السلام وشاهد صنوه المحبوب تكسوه الدماء، قطيع اليدين، مفضوخ الرأس، فبكى عليه والعباس يسمع صوت أخيه. فلما أراد الحسين حمله أقسم عليه العباس بحق جده أن يتركه. فقام عنه وهو يكفكف دموعه ويقول:

ـ «الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي وشمت بي عدوي».

فرجع الحسين(ع) إلى المخيم منكسراً حزيناً باكياً يكفكف دموعه بكمه كي لا تراه النساء.

ونادى بصوتٍ عال:

ـ «أما من مجير يجيرنا؟ أما من مغيث يغيثنا؟ أما من طالب حق ينصرنا؟ أما من خائف من النار فيذبّ عنا؟

ولما رأته سكينة مقبلاً، أخذت بعنان جواده وقالت: اين عمي

العباس أراه أبطأ بالماء...

فماذا يجيبها الإمام (ع)؟ فرأى من المناسب أن يصارحها فقال لها:

ـ إن عمك قُتل

وتسمع الخبر زينب(ع) فيكون كالصاعقة على قلبها الحزين، فتصرخ منادية:

ـ وا أخاه...

واه عباساه.

وا ضيعتنا بعدك...

فبكت النسوة، وبكى الحسين معهنَّ ونادىٰ:

ـ «واضيعتنا بعدك أبا الفضل».

ويبقى الإمام الحسين وحيداً بعد شهاده العباس(ع)، بلا ناصرولا معين.

ويؤتى إليه بابنه الرضيع عبد الله يستسقي القوم له شيئاً من الماء، أو يأخذوه ويسقوه.

وتقع الملحمة العظيمة التي اهتزت لها السماوات.

إذ يأتيه سهم وهو في يد الإمام فيذبحه من الوريد إلى الوريد، فيعود به لأمه مذبوحاً...

وبعد ذلك يودّع العيال والنساء، فيرتجّ المخيّم من البكاء وترتجّ السماوات الأرض، ولكن لاحيلة من ذلك، هذا هو اليوم الموعود.

وقبل أن يمضي الإمام وقف مع أخته العقيلة التي سيبدأ دورها العظيم بعد قليل، وقف معها ونادى:

- يا سكينة! يا فاطمة! يا أم كلثوم! يا رقية! عليكن مني السلام فهذا آخر الاجتماع وقد قرب منكن الافتجاع.

فعلت أصواتهن بالبكاء وصحن:

- الوداع الوداع! الفراق الفراق!

فهذه تقبّل رأسه، وتلك تقبّل يديه ورجليه.

ثم قدّمت زينت له جواده وقالت:

- أي اختٍ تقدّم لأخيها جواد المنية؟!

ثم بكت، فصبرّها الحسين(ع) وركب جواده.

وقبل أن ينطلق قالت له زينب:

- أخي حسين، انزل من على ظهر جوادك.

فنزل. فقبّلته في نحره، ثم حوّلت وجهها إلى المدينة وصاحت:

- يا أماه، قد استرجعت الأمانة.

تعجب منها الإمام. فقالت له:

ـ لما دنت الوفاة من أمّنا فاطمة قبّلتني في نحري وقالت: «بنيّة هذه وديعة لي عندك، فإذا رأيتِ أخاكِ الحسين وحيداً وفريداً فقبّليه».

ثم ركب جواده، وودّع أخته واتّجه إلى ساحة القتال وهو يصول على الميمنة مرتجزاً:

الموت أولى من ركوب العار و العار أولى من دخول النار

ثم يصول على الميسرة وهو يرتجز:

أنا الحسين بن علي أليت ألّا أنثني

أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي

أجل، فأنت الحسين سلالة النبين وحفيد سيد المرسلين. وإلا فكيف لمثلك أن يصمد وقد شاهد مصارع أولاده وإخوته وأهل بيته وأصحابه وعانى من العطش ونزف الدماء، وشاهد حريمه في هذا الوضع الموجع؟

كيف لمثلك أن يصمد رغم هذه الفجائع العظمى؟

إنه صمود الانبياء وأولي العزم الذين ميّزهم الله عن بقيه عباده.

وقد روى بعد ذلك ولده علي زين العابدين(ع) العليل آنذاك

الصور المذهلة عن صبر أبيه، إذ قال: كان كلما يشتدّ الأمر يشرق لونه وتطمئن جوارحه.

وأخذ عليه السلام يقاتلهم وحده والأعداء يحيطونه من كل جانب ضرباً بالسيوف والرماح، وأكثر فيهم القتلى وكثرت جراحاته، وكثر نزفه، ورغم ذلك لم يتوان وهو في تلك الحالة عن إسداء النصح إذ قال:

ـ «عباد الله، اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد، وبقي عليها أحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للبلاء وخلق أهلها للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، والمنزل بلغة، والدار قلعة، فتزودوا فإنّ خير الزاد التقوى واتقوا الله لعلكم تفلحون».

ثم رجع لعياله ليودعهم الوداع الأخير.

وقد أوصى حرم الرسالة وعقائل الوحي بلبس الأزر والاستعداد للبلاء، وأمرهنّ بالصبر والتسليم لقضاء الله. إذ قال:

ـ «استعدوا للبلاء، واعلموا أن الله تعالى حاميكم وحافظكم وسينجيكم من شرّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير، ويعذّب عدوكم بأنواع العذاب، ويعوّضكم عن هذه البلية بأنواع

النعم والكرامة فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم».

فأحطن به وهو يسبح بدمه وقد سرى ذعر الفراق بأوصالهن و هطلت دموع الفراق وهجمت عليهم سهام الفجيعة ولا يُعرف أمحنتهن أكبر أم محنة الإمام، وقد فطّر هذا المنظر الرهيب فؤاده وهو صاحب القلب الذي يحنو حتى على أعدائه، فكيف يكون حاله مع بناته وعياله ونسائه، فقد رآهن وقد لطمن وجوههن وارتفعت أصواتهن بالبكاء والعويل، وألقين بأنفسهن عليه، وكانت من أشدّ المحن العضال على قلب الحسين(ع).

و بينا هم كذلك ينادي الرجس ابن سعد بجيشه:

ـ «اهجموا عليه مادام مشغولاً بنفسه وحرمه فوالله إن فرغ لكَم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم».

فحمل عليه الأرجاس بالسهام فأصاب بعضها أزر النساء فذعرن ودخلن الخيمة، وخرج بقية الله في الأرض كالليث الغضبان وجعل يحصد رؤوسهم الخبيثة بسيفه ويتقي السهام بصدره ونحره، فأصابته السهام من كل جانب، فسهم أصاب فمه الطاهر فتفجّر دمه الشريف، فوضع يده تحت الجرح، فلما امتلأت دماً رمى به الى السماء وجعل يخاطب الله تعالى قائلاً: «اللهم إن هذا فيك قليل».

وسهم أصاب جبهته الشريفة المشرقة بنور الإمامة ونور جده رسول الله(ص) فانتزعه، فتفجّر دمه الشريف، فرفع يده بالدعاء:

ـ «اللهم إنك ترى ما أنا فيه، من عبادك العصاة، اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً، ولا تذر على وجه الأرض منهم أحداً، ولا تغفر لهم أبداً».

و صاح بالجيش:

ـ «يا أمة السوء بئسما خلفتم محمداً في عترته، أما إنكم لا تقتلون رجلاً بعدي فتهابون قتله بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم إياي، وأيم الله إني لأجور أن يكرمني الله بالشهادة، ثم ينتقم منكم من حيث لا تشعرون».

ووقف الإمام ليستريح بعدما أعياه نزف الدم، فرماه وغد بحجرٍ أصحاب جبهته المباركة فسالت الدماء على وجهه، فأخذ الثوب ليمسح الدم عن عينيه الكريمتين، فرماه رجس بسهم محدد له ثلاث شعب فوقع على قلبه الشريف، وهنا أيقن الإمام بدنوّ الأجل فشخص ببصره نحو السماء وهو يقول: «بسم الله وعلى ملة رسول الله(ص)... إلهي إنك تعلم إنهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيره».

وأخرج السهم من قفاه فانبعث الدم كالميزاب فأخذ يتلقاه

بيديه فلما امتلأتا رمى به نحو السماء وهو يقول: «هوّن مانزل بي أنّه بعين الله».

وأخذ من دمه الشريف فلطخ به وجهه ولحيته وهو يقول: «هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله (ص) وأنا مخضب بدمي...»

ثم سقط من ظهر جواده على الأرض.

ومكث الإمام مدة من الوقت على وجه الأرض وقد هابه الجميع من التقدم إليه.

يقول أحد الأعداء: لقد شغلنا جمال وجهه ونور بهجته عن الفكرة في قتله. وما انتهى إليه رجل إلا انصرف كراهية أن يتولى قتله[٣١].

وخرجت بطلة كربلاء العقيلة حفيدة الرسالة زينب العظمى من خبائها وهي فزعة نادبة شقيقها وفلذة كبدها فقالت واللوعة تقطع قلبها الشريف: «ليت السماء أطبقت على الأرض».

وتوجهت لابن سعد فصاحت به: «أرضيت أن يُقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه؟

فأشاح الرجس بوجهه عنها ودموع التماسيح تسيل على لحيته المشؤومة.

ثم هرعت إلى الأطفال والنساء المذعورين في الخباء.

وصاح شمر بالأوغاد: ماذا تنتظرون بالرجل؟ أُقتلوه ثكلتكم أمهاتكم.

وكلما تقدم أحدهم رجع، إلى أن تقدم الشمر اللعين.

«إنا لله وإنا إليه راجعون»

«إنا لله وإنا إليه راجعون»

«إنا لله وإنا إليه راجعون»

واحتزّ رأسه الشريف.

فكانت المصيبة العظمى والنار التي أضرمت في قلوب المؤمنين إلى يوم القيامة، والحزن الأبدى والعزاء السرمدي.

الفصل العاشر

عودة السبايا للمدينة

ترتجّ المدينة المنورة وتضطرب وكأن زلزالاً قد انتابها.

فالحديث الذي يدور في الشارع مبهم، والروايات متناقضة. والكل يريد أن يعرف الحقائق، وعلى رأسهم العظيمة الشامخة أم البنين. أليس إمامها الحسين(ع)؟ أوليس أبناؤها الأربعة وعلى رأسهم قمر عشيرته العباس مع ركب الإمام الحسين؟

و تمرّ الأيام ويقترب الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) من المدينة هو والعقيلة زينب العظيمة ونساء وأيتام الإمام الحسين و أيتام آل البيت(ع). وعندما تقترب القافلة من المدينة يرسل الإمام بشر بن حذلم ليقدمه في دخول المدينة.

تقدّم بشر ووصل المدينة الكئيبة وهو يصيح بأعلى صوته:

ـ يا أهل يثرب لا مقام لكم بها...

و يمسك عن الشطر الثاني من البيت.

و يسأله الناس ما الخبر؟ فلا يجيب. ويعيد:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها.

ويصمت. وهو يتقدم جهة مسجد النبي(ص)

والناس من حوله وخلفه وقد انقلبت المدينة رأساً على عقب، وهم يتبعونه، حتى إذا استوى على أكمة في مسجد النبي(ص)، وقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها نساءً ورجالاً واطفالاً يريدون الخبر اليقين؛ فيصيح بأعلى صوته، وبحزن شديد يعلن ذلك الخبر الذي اقشعرت له أظلة العرش وبكت عليه أهل السماء والأرض وأمطرت له السماء دماً. فما رُفع حجر في ذلك اليوم المشؤوم إلا ووجد تحته دم عبيط:

يا أهل يثرت لا مقام لكم بـها قُتل الحسين فأدمعي مدرار.

الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القناة يدارُ

وتضجّ المدينة بالبكاء، وتموج القلوب مع العبرات والآهات والحسرات على بقية الله في أرضه وخامس أصحاب الكساء... وفجأة ومن بعيد...

تتقدم سيدة مهيبة طويلة القامة على عاتقها طفل صغير، يغطيها الوقار والرفعة. تتقدم جهة القوم تحمل طفلاً للعباس(ع) وكأنها لم تسمع نعي ابن حذلم.

تتقدم فيخيِّم السكوت في المكان من هيبتها ووقارها، فهذه سيدة نساء العرب وأم الأبطال الأربعة (أم البنين) وزوجة سيد الوصيين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع).

ويظن الناس أنها جاءت تسأل عن فلذات أكبادها عن أبنائها الأربعة (العباس وإخوته) الذين ربّتهم وسهرت عليهم وغذتهم بالإيمان والإباء والوعي والبصيرة ليكونوا سنداً لها وفخراً وعزاً في الدنيا والآخرة.

ويحقّ لها أن تسأل عن أبنائها ولا ينقص من قدرها ذلك شيئاً، لكنها ليست كبقية النساء، إذ تميزت بالفضل منذ بداياتها، وقبل أن تقترن ببعسوب الدين وبوارث علم النبين أمير المؤمنين، فكيف وقد نهلت منه علماً جماً. إنها اليوم تفاجئ الدنيا بفضل لم يعرف التأريخ له مثيلاً. إنها تفاجئ الدنيا بوفاء لم يُعرف من قبل ولا بعد.

فقالت لابن حذلم:

ـ أخبرني عن الحسين؟؟

فتتحير الألباب لهذه العظيمة! ما لها لا تسأل عن أبنائها أيُعقل أن تكون هذه إنسية؟

فيجيبها بشر بهذا الجواب الأليم:

ـ عظّم الله لك الأجر بولدك عون.

وهنا يتوقع الناس أن تصرخ، ويحقّ لها ذلك، لكنها تمعن في العظمة والسمو. وليس ذلك لأنها تريد أن تقول للناس شيئاً وإنما هذا حقيقة معدنها.

دون أن تعلِّق على فجيعة ابنها عون، ذلك الشاب، ابن علي ابن أبي طالب، تسأل مرة أخرى:

ـ أخبرني عن الحسين؟

فيتعجب الناس من هذه المرأة التي تعلم بشهادة ابنها ثم لا تكترث وتعيد السؤال عن الحسين.

ويتابع بشر بقية الفجيعة:

ـ عظّم الله لك الأجر في ولدك عبد الله.

وتعاود العظيمة نفس السؤال.

ويتابع بشر:

عظّم الله لك الأجر في عثمان.

وتكرر وتتسامى وتتألق في سماء العظماء، وتسأل نفس

السؤال:

ـ أخبرني عن الحسين(ع)؟

وهنا تكون المصيبة الأكبر والمأساة الأعظم ـ وهو خبر شهادة ذلك الذي ادخره الحسين للشدة، وأعدّه أبوه ليوم الحسين ـ فيقول بشر بعد أن جمع شتاته:

ـ عظّم الله لك الأجر في العباس.

كم سيتحمل قلب أم البنين؟! يسقط الطفل منها وتقول بصوت قطّع القلوب وأدماها، وأسال العبرات وأجراها:

ـ لقد قطّعت نياط قلبي!!! أخبرني عن ولدي الحسين؟

الله أكبر يا أم البنين! فلا نعلم أموقفك هذا أعظم أم موقف ولدك العباس عندما رمى الماء من يده مواساة لعطش الحسين واستقبل الموت عطشاناً.

ويتابع بشر:

ـ عظّم الله لك الأجر في الحسين؟

فيلفّها الحزن ويعتريها الأسى لهذا المصاب العظيم.

فيتفطر قلبها على إمامها وأبنائها دفعة واحدة.

فيا للفجيعة الكبرى والكارثة العظمى ما يكون وقع هذه الأخبار على قلبك يا أم البنين؟

ويذهل الناس من هذا الموقف الغريب إذ تكشف هذه المرأة جانباً من عظمتها وجانباً من معدنها وروحها التي تحملها بين جنباتها ـ سمو ورفعة وعظمة لا يمكن أن يستوعبه فكر بَشَر أو عقل إنسان إلا الذي يعرف عظمة علي(ع) وعظمة الحسين(ع). عندها سوف يعذر أم البنين وقد قال علي(ع):«إن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها». وهذه المرأة ممن وعى قلبها فسمت مع من سمى في سماء المجد، وسيذكرها التأريخ ما برح البشر على وجه الأرض عظيمة بلا حدود، عظمة لا يمكن أن يصفها أي أديب أو شاعر أو متكلم مهما بلغ من البلاغة لانها فوق الإدراك الطبيعي.

وتموج المدينة بهذه الأخبار ويدوّي الحزن في جوانبها وأزقّتها، ويعود أهل المدينة إلى دورهم باكين منتحبين.

أم المؤمنين أم سلمة لم تنتظر حتى هذا اليوم بل يُقال إنها ماتت عندما رأت التراب في القارورة المعهودة وقد تحول الى دمٍ، عندها عرفت أن الحسين قد قتل كما عهد لها رسول الله بذلك. وهنا يجب أن نتوقف ونطرح عدة أسئلة.

ـ ما سر هذه التربة؟

ـ لماذا أحضرها جبرئيل قبل مقتل الحسين؟

ـ لماذا خصّها الله بهذه الخاصية ؟

ـ وإذا كان الله قد أعطى تربة كربلاء شأناً قبل قتله، فما شأنها بعد مقتله ؟

إنها تربة تحوي اسراراً وحوت فضلاً واسراراً عندما ضمت جسد الحسين (ع) ابن بنت النبي (ص) ولا عجب عندما يجعل الله الشفاء في تربته كرامةً له (ع) كما جعل الشفاء في ماء زمزم.

فتفكروا يا أولى الألباب

الفصل الحادى عشر

أم البنين... أسوة

يعود جابر إلى داره محمّلاً بالأخبار الحزينة، أخبار فاجعة كربلاء من أحداث الواقعة وأحداث السبي الأليم، إلى أمه العجوز أم عبدالله. فيضجّ البيت بالبكاء والنحيب، وتنهار أم عبد الله وتتمدد في صحن الدار مغمىً عليها، فتبادرها النساء بالماء ويحملونها إلى داخل المنزل ويتعهدونها بالرعاية. فتفيق وتنظر الى ابنتها وزوجة عبد الله وزوجة جابر وتقول لهم: لا أريد أن أعيش بل أتوق إلى الموت.

جابر ـ استغفري الله يا أماه، إن الأعمار بيد الله وليست بأيدينا.

أم عبد الله بصوت يرتجف:

ـ وأنا أطلب من الله أن يأخذني إليه، فلا أستطيع أن أسمع هذه الأخبار المؤلمة.

تتكلم ودموعها الساخنة تنحدر على خدّيها كالمطر.

جابر ـ كلنا محزونون ولا نقول إلا «إنا لله وإنا إليه راجعون» والطاعة لإمامنا زين العابدين عليه السلام فهو إمامنا بعد الإمام الحسين عليه السلام.

أم عبد الله ـ لله دُره كم عانى من آلام ومحن، سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. وكيف حال أم البنين مع هذه الفجائع؟

جابر ـ لا أحد يعلم الحزن الذي في قلبها إلا الله، كان الله في عونها، كيف ستعيش بعد هذه الفجائع وأحفادها يذكّرونها دائماً بأولادها؟

أم عبد الله ـ كان الله في عونك يا أم البنين.

وهنا يرى جابر أن الوقت مناسب ليخبرها باستشهاد أخيه عبدالله، فهي الوحيدة التي لم يخبرها، فقد أخبر أهل بيته من قبل وكتموا الأمر عن الأم، فبادرها:

ـ ألا يستحق الإمام الحسين(ع) هذه التضحية من أم البنين؟

أم عبد الله ـ بل يستحق أن يفنى كل شباب العالم من أجله وقليل ذلك في حقه.

جابر ـ وكيف سيكون حالك لو أصابك ما أصاب أم البنين؟

أم عبد الله ـ عندها سوف أحزن حزناً شديداً، ولكن سأفتخر عند رسول الله(ص) وعند الزهراء بأني واسيتهم وكنت مَن نصرهم.

جابر ـ وهل ستتحملين موتي أو موت عبد الله أخي؟...

ثم يصمت.

هنا أحسّت أم عبد الله بأن جابر يمهِّد لخبر ما وقد يكون مكروهاً أصاب عبد الله، فصرخت بأعلى صوتها!

ـ هل حدث لعبد الله مكروه؟

فلم يجبها جابر وأطرق الى الأرض ساكتاً إقراراً منه بالفجيعة.

وبدت أم عبد الله مذهولة مدهوشة، فوقفت وأمسكت بملابس جابر وهي مدهوشة:

ـ أخبرني ولا تعذّبني.

جابر ـ عظم الله لكِ الأجر يا أُماه فقد قضى شهيداً في سبيل الله وفي طريق الحسين وعلى نهجه.

فسقطت على ركبتها ورأسها إلى الأرض وهي تئنّ وتنحب: وانحنى عليها جابر، وجلس في مقابلها، وأمسكها برفق وقال لها:

ـ تذكّري أم البنين يا أماه.

أم عبد الله ـ أنا لستُ أم البنين يا ولدي.

جابر ـ ولكن لنا بهم أسوة، وقد قال الله: «ولكم في رسول الله أسوة حسنة» رغم أنا بشر عاديين.

فقالت بصوت يقطّع نياط القلب وهي ترتجف من الحزن:

ـ إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وضجّ البيت كلّه بالبكاء، وتجدّدت أحزان البيت، وأخذوا يرددون جميعاً:

ـ «إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

وأخذ الجميع يواسي الأم الحزينة، بينما جابر أخذ زاوية من البيت يبكي أخاه، وكأنه فقده للتوّ، وكذلك أرملته المسكينة.

ورفعت أم عبد الله يدها للسماء تدعو:

ـ اللهم إنتقم لنا ممن ظلم الحسين وقتله وإخوته وأهل بيته، وأفجعَ عياله ومحبّيه وأفجعَنا، وأحرق قلوبنا بمصابهم. اللهم اربط على قلب زينب(ع) وقلب أم البنين. فلقد عَلِمْتُ للتو ما يعانون.

واستمرّت تدعو وتبكي، وابنتها تحاول أن تشدّ من أزرها وتواسيها، فتلتفّت إلى ابنتها وقالت:

ـ الآن عرفت معنى المصاب! الآن عرفت ما تعانيه الأم!! الآن عرفت عظمة أم البنين.

الفصل الثاني عشر

أحزان أم البنين

أجواء المدينة في غاية الكآبة، كل ذرة من جدرانها وتربتها تبكي الحسين وتنحب لمصابه وتصرخ:

ـ آه لمصابك يا أبا عبد الله

آه لفراقك يا بقية أصحاب الكساء

آه لفقدك يا ابن بنت المصطفى.

ماذا أصاب هذه الأمة؟ هل هذه هي أمة الإسلام؟ هل هـذه هي خير أمة أخرجت للناس؟

فأي صراخ وأي عويل لا يمكن أن نعتبره تعبيراً عن الحزن والألم، لأن الصراخ والعويل والبكاء يكون له نهاية ما، أما مصيبة

الحسين فهي كارثة بشرية وتاريخية على مرّ الدهور، ومصابه مصاب الإنس والجنّ والملائكة؛ ولهذا جاء في بعض الزيارات: وتواتر البكاء عليكم بل يتقرب أهل السماء بحبّكم.

فهذا التواتر في البكاء يتناسب مع حجم المصيبة الأبدية.

وهكذا قتلوا الإمام الحسين(ع) باسم الإسلام. وكان هدفهم من قتله تصفية الإيمان والمؤمنين، واللعب بمقدرات الدين والناس، فهؤلاء هم بنو أمية.. الشجرة الخبيثة.. تلك الشجرة الملعونة في القرآن.

من هذا الوضع نعرف لماذا قدّم الإمام الحسين كل هذه التضحيات لإنقاذ الدين الذي تحول إلى ألعوبة أعادت اللات والعزى (بصور أخرى) تُعبد من دون الله باسم الدين ولا أحد يعترض؛ لأنهم احتفظوا بظاهر الطقوس الدينية إلا أنها فارغة من الجوهر والمضمون وخالية من المبادئ والثوابت، فكان لزاماً على الحسين أن يقدِّم هذه التضحيات والزاماً على الواعين من الأمة أن يقدِّموا معه التضحيات ولزاماً على أم البنين أن تقدِّم أربعة قرابين في ملحمة الطف وهى راضية كل الرضا؛ إذ ساندت حجة الله في مهمته، وكان لوجودها قيمة في معادلات الرسالة المحمدية الخالدة، فأحسنت البيع مع خالقها «إن الله اشترى من المؤمنين

أنفسهم» لكنها أم كبقية الأمهات فمازال للمصاب حرقته ولوعته، لا تبرد أبداً، ومازالت نوباته تراودها صباح مساء ليس لها سلوى بعد الله سوى البكاء والنحيب.

وتقودها لوعتها على أحبابها إلى البقيع فتخط أربعة قبور رمزية على صعيده لأبنائها الأربعة، ثم تجلس تبكيهم بكاءً أبكى حتى الظالمين.

ويدوّي صوتها يفتّ عروش الجبارين؛ إذ تقول راثية أبناءها على تلك القبور الرمزية:

يا من رأى العباس كرّ على جماهير النقد
ووراه من أبناء حيدر كل ليث ذي لبد
أُنبئتُ بأن ابني أصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال برأسه ضرب العمد
لو كان سيفك في يدك لما دنا منه أحد

حتى بكى لبكائها مروان بن الحكم، ذلك الناصب لأل محمد أشد العداء.

ومرة أخرى كانت (عليها السلام) تقول في رثائهم:

لا تـــدعونّي ويك أم البـنين

تـــذكّروني بـليوث العـرين

كـانت بـنون لي أُدعـى بـهم

واليوم أصبحت ولا مـن بـنين

أربـــعة مـثل نسـور الربـى

قد واصلوا الموت بقطع الوتين

تـــنازع الخـرصان أشـلاءهم

فكـلّهم أمسـى صـريعاً طـعين

يـا ليت شعري أكـما أخـبروا

بأن عـــباساً قـــطيع اليـمين

نعم يا أم البنين. صحيح أن عباس قطيع اليمين والشمال، لكن هذا إمامك زين العابدين (ع) يقول: «رحم الله العباس فلقد آثـر وفدى أخاه بنفسه حتى قُطعت يداه فأبـدله الله عـز وجـل بـهما جناحين يطير بهما في الجنة كما جعل لجعفر بن أبي طالب عليهما السلام، وإن للعباس(ع) عند الله تبارك وتعالى مـنزله يـغبطه بـها جميع الشهداء يوم القيامة» فهنيئاً لكِ يـا أم البـنين هـذا الشـرف العظيم. يكفيك أن الزهراء(ع) عندما تأتي يوم القيامة في المحشر فإنها لا تطلب بثأر ولدها الحسين أولاً وإنما تأتي حاملةً كفّي ولدكِ

العباس تطلب بثأرها من قاتليه.

يا سيدتي يا أم البنين! يا أم التضحية والإباء والسمو! إنك كنتِ تعلمين ما سيجرى على ابنك العباس عندما كان أمير المؤمنين يقلّب يدي العباس(ع) صغيراً ويبكي، وقد أخبرك ما يجري عليه، وكنتِ صابرة راضية بقضاء الله ومسلِّمة الأمر كله له، مؤمنة مطيعة لإمامك أمير المؤمنين، وإنك كنت تعلّمين العباس حبّ الحسين وطاعته.

ألم تقولي للعباس مذ كان طفلاً: بني إذا جلست بين يدي الحسين(ع) فاجلس القرفصاء. وكنت بذلك تغذّين أبناءكِ حب وطاعة الإمام المعصوم، المفترض الطاعة. ولقد أصبحتِ رمزاً لمعنى التضحية فلا يضاهيك أحد في هذا المعنى فهنيئاً لكِ بما صبرتِ في تأديه الأمانة ونصرة الرسالة، ونسأل الله أن نهتدي بكِ ونعرف معنى الحياة، من خلال مواقفكم فيها، ونظرتكم إليها.

خاتمة

أم البنين تعني ... إيمان مع استقامة ووعي

عند ما نذكر مصائب أم البنين ـ ويالها من مصائب لا يمكن أن ندرك الجزء اليسير منها ـ نطلب منها الشفاعة ونسأل الله بمقامها عنده قضاء حاجاتنا.

ولكن الصحيح ألّا نحصر الاستفادة من قصتها في قضاء الحوائج، لأنها ضحّت بفلذات أكبادها من أجل دينها، بل يجب أن نستفيد من قصتها التضحية ومساندة الحق بكل ما نملك، والصبر على المكروه ونتعلم من سيرتها احترام رموز الحق وإبراز الأدب لهم ومحاولة تقديم كل شي من أجلهم، ويكون كل ذلك بوعاء

الصدق والإخلاص والورع، بعيداً عن الرياء والتكبر والمن، فليس من الإيمان أن يكذب الإنسان المؤمن وهو يعلم حرمة الكذب لأجل مصلحة مادية بسيطة تافهة.

وليس من الإيمان أن يمتنع المؤمن من دفع الخمس والزكاة رغم علمه بوجوبها.

وليس من الإيمان أن تترك المرأه المسلمة حجابها رغم إيمانها بالله ورسوله وكتابه.

إذا كانت لا تستطيع أن تضحي برغبة شيطانية في نفسها قد يكون مبعثها حب الزهو أو حب الراحه أو عدم الأكتراث بأمر الله أو تمهيداً لرغبات محرّمة والعياذ بالله وما شابه ذلك، فما يكون حالها لو طُلب منها تضحية أكبر من ذلك فهل ستثبت على دينها أم تعتذر؟

إن كل واحد منا يستطيع أن يرى في نفسه مدى التفريط بالثمين الغالي في عالم الإيمان والمعنويات، من أجل عدم التنازل عن بعض الماديات. وهذه هي المعادلة التي تحدد مصير الانسان.

﴿إن الله إشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾.

يقول الشاعر

أنــفاس نـفسك أثـمانهالجـنان فـلا

تشرى بها حطباً في الحشر يشـتعل

فإذا كنا نحب أم البنين ونقدّرها ونعترف بـفضلها، عـلينا أن نكون مثلها في الإيمان والصدق والتضحية والالتـزام والاسـتقامة وتقديم الغالي والنفيس من أجل نصر الديـن ونشـر فـضائل آل محمد(ص) ومظلوميتهم، فـإذا كـانت هـي قـد ضـحّت بأغـلى ماعندها، أفلا نضحي نحن بالشيء اليسير؟

فلنراجع أنفسنا لنعرفها حـتى لا نـخسرها بـل نـربحها كـما ربحتها أم البنين.

وفي هذا السبيل علينا أن نتبع الخطوات التالية:

١ ـ أن ندرك إدراكاً كاملاً التـضحية التـي قـدمتها أم البـنين والعظماء أمـثالها، وذلك بـقراءة تـاريخ العـظماء والاسـتماع إلى قـصصهم عـبر المـحاضرات والمـجالس، ونـحاول أن نـجسّد سلوكهم فينا.

٢ ـ نراقب أنفسنا هل عندنا القدرة على ما قاموا به لو كنا في ظروف مشابهة لظروفهم، وإلى أي قدر نستطيع أن نـضحى فـي

طاعة الله وفي جنب الله وأمام الواجبات. أي باختصار (طاعتي لله ومعصيتي لله) أضعها في الميزان وأُراقب نفسي.

فكل هذه التضحيات التي قدّمها الإمام الحسين وأهل بيته عليه السلام والقرابين الأربعة التي قدمتها أم البنين هي من أجل طاعة الله واتباع أمره واجتناب نواهيه. فطاعتنا لله هو إرضاء لله وإرضاء للحسين (ع).

٣ ـ إذا وجدنا أننا لانستطيع أن نستفيد من هذه العبرة (تضحيات أم البنين) ولازلنا تاركين لأمر الله مرتكبين نواهيه، إذن فنحن أبعد ما نكون عن أم البنين وعن أهل بيت النبوة وعن خطاهم، وإن كنا محبين لهم، لأن هذا الحب حب ناقص، وأن في نفوسنا خللاً فادحاً ومرضاً خطيراً، وعلينا أن نتدارك نفوسنا العليلة المريضة السقيمة بنفس الاهتمام الذي نتدارك به أبداننا أو مصالحنا المادية فيما لو تعرضت للخطر، لأن العاقل من نظر إلى نتائج الأمور، وشخص ببصيرته إلى ماوراء هذه الدنيا الفانية، واستعمل نفسه في طاعة الله وأوليائه، وقدّم **نعم** الله عليه لخدمة دينه وإعلاة رسالته.

فسلام الله عليك يا أم البنين

سلام الله عليك يا أم البطولة والفداء

سلام الله عليك يا أم التضحيات

سلام الله عليك يا أم العباس بن علي و على أبنائك

سلام الله عليك يا أيتها الفائزة في هذه الدنيا الفانية

سلام الله عليك يا أيتها الشامخة العظيمة

ورزقنا الله معرفتك والاستفادة من عطائك بحقك يا أم البنين الأربعة إنه سميع مجيب

تم بحمد الله في ٢٩ رمضان

الكويت ٢٠٠٠/١٢

مصادر الرواية

والأحاديث النبوية والخطب الواردة فيها

١ ـ العباس بن علي، لباقر شريف القريشي.

٢ ـ الإمامة والسياسة، لابن قتيبة.

٣ ـ قصيدة:

ضمني عندك يا جد في هذا الضريح علني يا جد من بلوى زماني أستريح

٤ ـ البحار، ج ٤٤، باب ٣١، ص ٢٢٨ و ٢٥٠، ح ٩ وص ٢٣٦، وما بعدها.

٥ ـ مختصر المحاسن المجتمعة، للصفوري.

٦ ـ سفينة البحار، ج ١.

٧ ـ الخصائص العباسية.

٨ ـ أم البنين، للسيد مهدى السويج.

٩ ـ أم البنين، أم زينب الكتبي.

١٠ ـ تاريخ الطبري، ج٦.

١١ ـ احتجاج الطبرسي.

١٢ ـ العباس، للمقرم.

١٣ ـ أم البنين رمز التضحية والفداء، محمد رضا الأنصاري.

١٤ ـ مقتل المقرم.

١٥ ـ حياة الإمام الحسين، القرشي.

١٦ ـ مقتل الحسين للخوارزمي.

١٧ ـ الصواعق المحرقة.

الفهرس

الفصل الأول: **خروج الامام** ٧

الفصل الثاني: تقصّي الأخبار ١١

الفصل الثالث: إخبار النبي(ص) بقتل الحسين(ع) ٢٥

الفصل الرابع: عظمة أم البنين ٣٥

الفصل الخامس: الحسين يخبر عن مقتله ٤٧

الفصل السادس: تعذيب الشيعة ٦٣

الفصل السابع: **الامتحان** ٧٣

الفصل الثامن: القصاص المشروع ٨١

الفصل التاسع: مواصلة السير إلى كربلاء ٨٥

الفصل العاشر: عودة السبايا للمدينة ١١٧

الفصل الحادى عشر: أم البنين... أسوة ١٢٥

الفصل الثاني عشر: أحزان أم البنين ١٢٩

خاتمة: **أم البنين تعني ... إيمان مع استقامة ووعي** ١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم